

الطبعة الأولى

سنة ١٣٥٣ هـ — سنة ١٩٣٤ م

مطبعة الاستقامة

بشارع أم الغلام رقم ١٤ بالحسين

الثمن ١٥ مليما



الطبعة الأولى

سنة ١٣٥١ هجرية

مطبعة الاستقامة

ترجمة الإمام المؤلف

﴿رضى الله تبارك وتعالى عنه﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الهادى إلى الصواب ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، وعلى آله وأصحابه السادة الأنجاب وكل من اهتدى بهديه إلى يوم المآب

﴿أما بعد﴾ فأقول إن المؤلف رحمه الله تعالى هو الإمام الزاهد التقىّ العارف بربّه أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسى الحسنى (١)

ولد رضى الله تعالى عنه بعد سنة ثلاثين وثمانمائة ونشأ من أول يوم خيرا مباركا فاضلا صالحا حبب إليه الاشتغال بالعلوم فخاض عبابها وارتشف من منابعها العذبة الصافية

سمع من والده ومن العلامة بن مرزوق وأبى عبد الله محمد بن العباس وأبى عثمان قاسم العقبانى وأبى عبد الله الجلاب وغيرهم من فحول العلماء

صنف رضى الله تعالى عنه عدّة مصنفات جليلة منها : المغرب المستوفى على الحوفى صنفه وهو ابن تسع عشرة سنة ولما اطلع عليه أستاذه أبو الحسن الراشدى أعجب به ودعا له وقال : لا نظير له فيما أعلم وأمره بإخفائه حتى يكمل سنه ثلاثين سنة ، ومنها شرح الجامع الصحيح لأبى عبد الله مسلم ابن الحجاج القشيرى ، وشرح مشكلات الجامع الصحيح لأبى عبد الله محمد

---

(١) السنوسى: نسبة لبنى سنوس قبيلة معروفة بالمغرب الأقصى والحسنى : نسبة للحسن بن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه

ابن إسماعيل البخارى ، وعقيدة أهل التوحيد الكبرى وشرحها ، والوسطى وشرحها ، والصغرى وشرحها ، وصغرى الصغرى وشرحها ، والمقدّمات وشرحها وله غير ذلك مؤلفات نفيسة

هذا ولإخلاص الأستاذ الإمام السنوسى رحمه الله تعالى فى تصنيفه ونفاسة مؤلفاته تقبلها الله تعالى منه بقبول حسن فحازت قبولا لدى أكابر العلماء وكتب إليه الإمام ابن يحبش التازى رحمه الله تعالى بما نصه :

صاغ الإمام الأوحد البحر الرضى	عزّ العلوم ومبطل الشبهات
نجل الكرام محمد بن الشيخ ذا	الفضل يوسف معدن البركات
الطاهر الأصل الشريف المرتضى	الصالح المبرور فى الدعوات
دررا تفوق محاسن الدرّ التى	قد تقتنى ذخرا إلى الفاقات
بل لا يماثل حسنها إذ هىّ من	أعلى الوسائل مطلبا للذات
ولهى موصلة المريد لما رجا	من فتح أنوار وفيض هبات
وحصوله فى مأمن من خوفه	وذهاب شك مفسد الحسنات
من كل نوع صاغ منها جملة	بقواطع البرهان ملتحفات

فجزاكم الله يا نعم السيد عن أنفسكم وعن المسلمين بأفضل ما جازى به أولياءه المتقين لقد بذلتم المجهود فى نصح المسلمين ، وبينتم الإشكال على كثير من المتقدّمين والمتأخرين ، ونظمتم ما كان متفرّقا من تلك الدرر ، وأظهرتم ما كان مختفيا من تلك الغرر ، فبرزت متقنة بجلابيب تلك العبارات ، منخرطة فى سلوك أساليب تلك الإشارات ، ممتنعة على كل طفيلىّ لا يقدّرها قدرها ولا يسلك وعرها ، قائلة بلسان حالها . ومعبرة عن مقام من أبرزها فى حسن جمالها ، بقول القائل

فشأن فحول أهل العلم شأنى وشأن البسط تعليم الصغار

خاض رضى الله تعالى عنه عباب العلوم برغبة لاتدانى ، وجهاد متواصل ففاضت عليه المعارف والعوارف ، وحسبك مؤلفاته وآثاره التى عطرت الأقطار الإسلامية ، وانتشرت لدى العلماء كالشمس فى رابعة النهار ، حاز رضى الله تعالى عنه قصب السبق فى ميادين العلوم المعقول منها والمنقول لاسيما التوحيد والتفسير والحديث لكثرة مراقبته لله تعالى ، وكان رضى الله تعالى عنه مع غزارة علمه مقبلا على العبادة بهمة لا تعرف السآمة والملل وإليك شيئا يسيرا مما حدّث به عنه بعض من تخرّج عليه قال ما ملخصه :

كان رضى الله تعالى عنه إذا صلى الصبح قرأ ورده ثم شرع فى إلقاء الدرس ثم دخل بيته فصلى الضحى ثم أخذ فى المطالعة إلى الظهر ثم خرج فصلى بالناس ويتنفل ما شاء الله تعالى ثم يقرأ العلم إلى العصر ثم يصلى العصر وربما خرج إلى داره فقرأ ورداً له ثم خرج لصلاة المغرب فلايعود إلا بعد صلاة العشاء وربما قرأ بعدها ما تيسر ثم يرجع إلى داره فينام ساعة ثم يستيقظ فيشتغل بالمطالعة أو النسخ ساعة ثم يتوضأ ويصلى أويذكر ربه حتى مطلع الفجر قال كان ذلك أكثر حاله رحمه الله تعالى

وما زال رضى الله تعالى عنه يعبد ربه وينشر علومه بين المسلمين على سنة نبويّة ، وأخلاق مرضية ، زهد ، وورع ، وعلم ، وحلم ، وحكم ، وأدب وخشوع ، وتواضع ، وكرم ، حتى وافته المنية فى يوم الأحد الثامن عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثمانمائة ؛ فزفت تلك الرّوح الطاهرة إلى ربها راضية مرضية ، حيث النعيم الخالد ، والفوز بالحسنى وزيادة

هذا ومناقب الإمام المؤلف رحمه الله تعالى قد كتب فيها عظيم الأسفار وإنما اكتفينا باليسير منها للاختصار

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه الولى الصالح أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسى الحسنى رحمه الله تعالى ونفعنا به وبعلومه آمين

الحمد لله الواسع الجود والعطاء ، الذى شهدت بوجوب وجوده ووحدانيته وعظيم جلاله وجوب افتقار الكائنات كلها إليه فى الأرض والسماء ، العزيز الذى عزّ فى ملكه عن أن يكون له شريك فى تدبير شىء ما فتعالى الله جلّ وعزّ عن الشركاء ، الرحيم الرحمن الذى عمت نعمه العوالم كلها فلا مخلص لكائن عن تلك النعماء ، الواسع الكريم المنفرد بالإيجاد فلا يستطاع شكر نعمه إلا بما هو من نعمه الجماء ، الغنىّ القدّوس فلا وصول إلى شىء من فضله إلا بمحض فضله تعالى ربنا وجلّ عن الأغراض وعن الأعوان والوكلاء والوزراء ، نحمده سبحانه على نعم لا تحصى وحمدنا له جلّ وعزّ من أجلّ الآلاء ، ونشكره تبارك وتعالى وهو الرؤف الرحيم الذى يبسط بفضله منقبض القلوب والألسنة والجوارح بما شاء من جميل الثناء ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نشأت عن محض اليقين فلا يطرق ساحتها بفضل الله تعالى ضروب الشكوك والامتراء ، ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم عبده ورسوله شهادة ندّخرها بفضل الله تعالى وجميل عونه لما قصم الظهور وأذاب الأكباد من أهوال الموت والقبر وما يتفاقم من المعضلات فى يوم البعث والجزاء ، ونحوز بها بفضل الله تعالى مع الآباء والأمهات والذرية والإخوة والأحبة فى أعلى

الفردوس غاية السموّ والارتقاء، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد عين الوجود وسرّ الكائنات وعروس المملكة ذى المفاخر التى جلت عن العدّ والإحصاء، وذى المقام المحمود والحوض المورود والوسيلة العظمى دنيا وأخرى وملجأ الخلائق كلهم وإليه يهرعون يوم تترادف الأهوال وتمتد أزمتها حتى يتبرأ من الشفاعة ويهتم بأنفسهم أكابر الرسل والأنبياء فصلى الله عليه وسلم من رسول ألقت إليه المحاسن والمفاخر كلها مقاليدها فسما على أعلى منصتها بحيث لامطمع لمخلوق على العموم فى نيل تلك الرتبة العلياء، ورضى الله تعالى عن آله وصحبه الذين طلعوا بعد غيبة شموس النبوّة أنجما فى سماء العلا للإرشاد والاهتداء، وعن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الفصل والقضاء

﴿وبعد﴾ فأهمّ مايشتغل به العاقل اللبيب فى هذا الزمان الصعب أن يسعى فيما ينقذ به مهجته من الخلود فى النار، وليس ذلك إلا بإتقان عقائد التوحيد على الوجه الذى قرّره أئمة أهل السنة العارفون الأخيار، وما أندر من يتقن ذلك فى هذا الزمان الصعب الذى فاض فيه بحر الجهالة وانتشر فيه الباطل أىّ انتشار ورمى فى كل ناحية من الأرض بأمواج إنكار الحق وبغض أهله وتزيين الباطل بالزخرف الغار، وماأسعد اليوم من وفق لتحقيق عقائد إيمانه ثم عرف بعد ذلك مايضطر إليه من فروع دينه فى ظاهره وباطنه حتى ابتهج سره بنور الحق واستنار، ثم اعتزل الخلق طرّا طاويا عنهم شره إلى أن ينتقل قريبا بالموت عن فساد هذه الدار، فهنيئا له بما يرى إثر الموت من نعيم وسرور لا يكيف ولايدخل تحت ميزان الأنظار، لقد صبر قليلا ففاز كثيرا فسبحان من يخص بفضله من يشاء من عباده ويقرب من يشاء ويبعد من يشاء بمحض الاختيار، وقد ألهم مولانا سبحانه بفضله وعظيم جوده فى هذا الزمان الكثير الشرّ لما لانطيق

شكره من معرفة عقائد الإيمان ، وأنزلها جلّ وعزّ فى صميم القلب بما تحتاج إليه من قواطع البرهان ، وعلم سبحانه بمحض فضله و إحسانه جزئيات قلّ من يعرفها اليوم ومن ينبه عليها بالخصوص من الأئمة الأعيان ، وأرشد سبحانه بمحض كرمه لتحقيق أمور قد ابتلى بالغلط فيها من لا يظن به ذلك عمن عرف بكثرة الحفظ والإتقان ، اللهم كما أنعمت فزدنا ياذا الجلال والإكرام من فضلك وتمم لنا ذلك بحسن الخاتمة والحلول إثر الموت مع الأحبة فى دار الأمان ، ولا تجعلنا ياأرحم الراحمين من المستدرجين بنعمتك ياذا الفضل والامتنان ، فبكرم جلالك وعلوّ ذاتك ثم برحمتك المهداة إلينا سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم نعوذ بك من السلب بعد العطاء ومن غضبك الذى لا يطاق ومن أن تلحقنا بأهل الخيبة والحرمان ومن جملة نعم مولانا العظيمة ، ومنحه الفائقة الكريمة ، أن وفقنا سبحانه بفضله فى هذا الزمان الكثير الجهل لوضع عقيدة صغيرة الجرم ، كثيرة العلم محتوية على جميع عقائد التوحيد ، ثم تأييدها بالبراهين القطعية القريبة لكل من له نظر سديد ، ثم ختمناها بشىء لم نره سمح به أحد غيرنا من المتقدمين ولا من المتأخرين ، وهو أنا شرحنا كلمتى الشهادة التى لا غنى للمكلف عن معرفتها وإلى عذب مواردها يشتد عطش المتعطشين ، إذ بها تقرع أبواب فضل الله تعالى والدخول فى زمرة المتقين ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وبإتقان معرفتها يسلم العبد من آفات الخلود فى غضب الله ويترقى بفضل الله تعالى إلى أعلى عليين ، فذكرنا معناها أولا ثم بينا وجه دخول جميع عقائد الإيمان فيها بحيث تبتهج عند ذلك بذكرها قلوب المتقين وينبسط على بواطنهم وظواهرهم ماانطوى من محاسنها فأصبحوا يتبخترون فى حلل معارفها بين رياض الجنة مترددين ، فدونك أيها المتعطش للدخول

فى زمرة أولياء الله تعالى عقيدة لايعدل عنها بعد الاطلاع عليها والاحتياج إلى مافيها إلا من هو من المحرومين ، إذ لانظير لها فيما علمت وهى بفضل الله تعالى تزهو بمجاسنها على كبار الدواوين ، فثق أيها الحافظ لها إن فهمتها بغاية الأمنية ، واشكر الله تعالى إذ منّ عليك بنعمة عظيمة طرد عنها كثير من الخلق فباءوا فى أصول عقائدهم بأعظم رزية ، وأخلص لى من دعائك إذ أخرجها من جوفى وحرّك بها يدى ولسانى مولاى المنفرد بإيجاد الكائنات كلها والعالم بكل طوية ، وهاأنا أمدك ثانيا بعون الله تعالى بشرح لها مختصر يكمل لك منها المقصود ، ويكشف لك إن شاء الله تعالى الغطاء عما انبهم عليك منها من المعنى المسدود ، فتظفر إن شاء الله تعالى بكيمياء السعادة وإكسير النجاة وتظل تجتنى بها إن وفقك الله تعالى ثمرات الإيمان إلى أن ينزل بك عرض الممات . وهذا أوان الشروع فى هذا الشرح المبارك بفضل الله تعالى الكريم الوهاب ، نسأله سبحانه أن يعيننى عليه ويوفقنى فيه لعين الصواب ، ببركة سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ومن انتمى إليه وحاز بمشاهدته أعظم شرف من ساداتنا الأصحاب

﴿ص﴾ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللّٰهِ

﴿ش﴾ الحمد هو الثناء بالكلام على المحمود بجميل صفاته سواء كانت من باب الإحسان أو من باب الكمال المختص بالمحمود كعلمه وشجاعته مثلا وإنما قلنا الثناء بالكلام عوضا عن قولهم الثناء باللسان ليشمل الحدّ الحمد القديم والحادث ، والشكر هو الثناء باللسان أو بغيره من القلب وسائر الأركان على المنعم بسبب ماأسدى إلى الشاكر من النعم فبينه وبين الحمد عموم وخصوص من وجه يعنى أن الحمد أعمّ من الشكر بحسب المتعلق لأنه يتعلق

بالكمال سواء كان إحسانا أو غيره والشكر لا يتعلق إلا بالإحسان والشكر أعمّ من الحمد بحسب المحل لأنه يكون باللسان وبالقلب وبسائر الجوارح قال الشاعر

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

والحمد لا يكون إلا باللسان والصلاة من الله على رسوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم زيادة تكرمة وإنعام وسلامه عليه زيادة تأمين له وطيب تحية وإعظام

﴿ص﴾ اعْلَمْ أَنَّ الْحُكْمَ الْعَقْلِيَّ يَنْحَصِرُ فِى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : الْوُجُوبُ، وَالاسْتِحَالَةُ، وَالْجَوَازُ، فَالْوَاجِبُ مَالَا يُتَصَوَّرُ فِى الْعَقْلِ عَدَمُهُ، وَالْمُسْتَحِيلُ مَالَا يُتَصَوَّرُ فِى الْعَقْلِ وُجُودُهُ، وَالْجَائِزُ مَا يَصِحُّ فِى الْعَقْلِ وُجُودُهُ وَعَدَمُهُ

﴿ش﴾ الحكم هو إثبات أمر أو نفيه والحاكم بذلك إما الشرع أو العادة أو العقل فلهذا انقسم الحكم إلى ثلاثة أقسام : شرعىّ ، وعادىّ ، وعقلىّ فالشرعى هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين بالطلب أو الإباحة أو الوضع لهما فدخل فى قولنا بالطلب أربعة : الإيجاب وهو طلب الفعل طلباً جازماً كالإيمان بالله وبرسله، وكقواعد الإسلام الخمس ونحوهما ، والندب وهو طلب الفعل طلباً غير جازم كصلاة الفجر ونحوها ، والتحريم وهو طلب الكف عن الفعل طلباً جازماً كالشرك بالله والزنا ونحوهما ، والكراهة وهى طلب الكف عن الفعل طلباً غير جازم كقراءة القرآن

مثلا فى الركوع والسجود. وأما الإباحة فهى التخيير بين الفعل والترك كالنكاح والبيع ونحوهما، وأما الوضع لهما أى للطلب والإباحة فعبارة عن نصب الشارع سببا أوشرطا أومانعا لما ذكر من الأحكام الخمسة الداخلة فى كلامنا تحت الطلب والإباحة. فالسبب مايلزم من عدمه العدم ومن وجوده الوجود بالنظر إلىذاته كالزوال مثلافإن الشارع وضعه سببالوجوب الظهر فيلزم من وجوده وجوب الظهر ومن عدمه عدم وجوبها، وإنما قلنا بالنظر إلى ذاته لأنه قد لايلزم من وجود السبب وجود المسبب لعروض مانع أوتخلف شرط وذلك لايقدح فى تسميته سببا لأنه لونظر إلى ذاته مع قطع النظر عن موجب التخلف لكان وجوده مقتضيا لوجود المسبب، وأما الشرط فهومايلزم من عدمه العدم ولايلزم من وجوده وجود ولاعدم لذاته ومثاله الحول بالنسبة إلى وجوب الزكاة فى العين والماشية فإنه يلزم من عدم تمام الحول عدم وجوب الزكاة فيما ذكر ولا يلزم من وجود تمام الحول وجوب الزكاة ولا عدم وجوبها لتوقف وجوب الزكاة على ملك النصاب ملكا كاملا، وأما المانع فهومايلزم من وجوده العدم ولايلزم من عدمه وجود ولاعدم لذاته، مثاله الحيض فإنه يلزم من وجوده عدم وجوب الصلاة مثلا ولايلزم من عدمه وجوب الصلاة ولاعدم وجوبها لتوقف وجوبها على أسباب أخر قد تحصل عند عدم الحيض وقد لا تحصل، فخرج لك من هذا أن السبب يؤثر بطرفيه أعنى طرفى وجوده وعدمه والشرط يؤثر بطرف عدمه فقط فى العدم فقط، والمانع يؤثر بطرف وجوده فقط فى العدم فقط، ومحلّ استيفاء ما يتعلق بمباحث الحكم الشرعى فى الأصول، وأما الحكم العادى فحقيقته إثبات الربط بين أمر وأمر وجودا أو عدما بواسطة تكرّر القران بينهما على الحسّ، مثال ذلك الحكم

على النار بأنها محرقة فهذا حكم عادى إذ معناه أن الإحراق يقترن بمس النار فى كثير من الأجسام لمشاهدة تكرر ذلك على الحس وليس معنى هذا الحكم أن النار هى التى أثرت فى إحراق مامسته مثلا أو فى تسخينه إذ هذا المعنى لادلالة للعادة عليه أصلا و إنما غاية مادلت عليه العادة الاقتران فقط بين الأمرين، أماتعيين فاعل ذلك فليس للعادة فيه مدخل ولامنها يتلقى علم ذلك، وقس على هذا سائر الأحكام العادية ككون الطعام مشبعا والماء مرويا والشمس مضيئة والسكين قاطعة ونحوذلك ممالاينحصر، وإنما يتلقى العلم بفاعل هذه الآثار المقارنة لهذه الأشياء من دليل العقل والنقل، وقد أطبق العقل والشرع على انفراد المولى جل وعز باختراع جميع الكائنات عموما وأنه لاأثر لكل ماسواه تعالى فى أثر ما جملة وتفصيلا، وقد غلط قوم فى تلك الأحكام العادية فجعلوها عقلية وأسندوا وجود كل أثر منها لما جرت العادة أنه يوجد معه إما بطبعه أو بقوة أودعت فيه فأصبحوا وقد باءوا بهوس ذميم، وبدعة شنيعة فى أصول الدين وشرك عظيم، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم، نسأله سبحانه النجاة إلى الممات من مضلات الفتن، والمرور ظاهرا وباطنا على أهدى سنن، ببركة سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم، وأما الحكم العقلى فهو عبارة عما يدرك العقل ثبوته أونفيه من غير توقف على تكرر ولاوضع واضع وهذا الحكم الثالث هو الذى تعرضنا له فى أصل العقيدة فقولنا الحكم العقلى احتراز من الشرعى والعادى وقد عرفت معناهما ﴿ قوله ينحصر فى ثلاثة أقسام ﴾ يعنى أن كل مايتصور فى العقل أى يدركه من ذوات وصفات وجودية أوسلبية أو أحوال قديمة أو حادثة لا يخلو عن هذه الثلاثة أقسام أى لابد له أن يتصف بواحد منها إما بالوجوب أوالجواز أوالاستحالة. و﴿ قوله فالواجب

مالا يتصور فى العقل عدمه ﴾ يعنى أن الواجب العقلى هو الأمر الذى لايدرك فى العقل عدمه يعنى إما ابتداء بلا احتياج إلى سبق نظر ويسمى الضرورى كالتحيز مثلا للجرم فإن العقل ابتداء لايدرك انفكاك الجرم عن التحيز أى أخذه قدر ذاته من الفراغ، وإما بعد سبق النظر ويسمى نظريا كالقدم لمولانا جلّ وعزّ فإن العقل إنما يدرك وجوبه له تعالى إذا فكر العقل وعرف مايترتب على ثبوت الحدوث له عزّ وجلّ من الدور أو التسلسل الواضحى الاستحالة فقد عرفت بهذا انقسام الواجب إلى ضرورى ونظرى. و ﴿ قوله والمستحيل مالا يتصور فى العقل وجوده ﴾ يعنى أيضاً إماابتداء أو بعد سبق النظر، فمثال الأول عروّ الجرم عن الحركة والسكون أى تجرده عنهما معا بحيث لا يوجد فيهما واحد منهما فإن العقل ابتداء لايتصور ثبوت هذا المعنى للجرم، ومثال الثانى كون الذات العلية جرما تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا فإن استحالة هذا المعنى عليه جلّ وعزّ إنما يدركه العقل بعد أن يسبق له النظر فيما يترتب على ذلك من المستحيل وهو الجمع بين النقيضين وذلك أنه قد وجب لمولانا جلّ وعزّ القدم والبقاء لئلا يلزم الدور أو التسلسل لو كان تعالى حادثا، فلو كان تعالى جرما لوجب له الحدوث تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا لما تقرّر من وجوب الحدوث لكل جرم فيلزم إذاً أن لو كان تعالى جرما أن يكون واجب القدم لألوهيته وواجب الحدوث لجرميته تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا وذلك جمع بين النقيضين لامحالة فقد عرفت أيضا بهذا انقسام المستحيل إلى ضرورى ونظرى. و ﴿ قوله والجائز مايصح فى العقل وجوده وعدمه ﴾ يعنى أيضا إما ضرورة وإما بعد سبق النظر، فمثال الأول اتصاف الجرم بخصوص الحركة مثلا فإن العقل يدرك ابتداء صحة وجودها للجرم وصحة عدمها له، ومثال الثانى تعذيب

المطيع الذى لم يعص الله قط طرفة عين فإن العقل إنما يحكم بجواز هذا التعذيب فى حقه عقلا بعد أن ينظر فى برهان الوحدانية له تعالى ويعرف أن الأفعال كلها مخلوقة لمولانا جلّ وعزّ لاأثر لكل ماسواه تعالى فى أثرما ألبتة فيلزم من ذلك استواء الإيمان والكفر والطاعة والمعصية عقلا وأن كل واحد من هذه يصلح أن يجعل أمارة على ماجعل الآخر أمارة عليه والظلم على مولانا جلّ وعزّ مستحيل كيفما فعل أو حكم إذ الظلم هو التصرف على خلاف الأمر ومولانا جلّ وعزّ هو الآمر الناهى المبيح فلا أمر ولا نهى يتوجه إليه ممن سواه إذ كل ماسواه ملك له جلّ وعلا لا يبدئ شيأ ولا يعيده ولا أثر له فى شيء ألبتة ولاشريك له تعالى فى ملكه ولا يسأل عما يفعل فصح إذاً أن يدرك العقل لكل من المؤمن والكافر والمطيع والعاصى صحة وجود الثواب والعقاب أو عدمهما واختصاص كل واحد بما اختص به من ذلك إنما هو بمحض اختيار مولانا جلّ وعزّ لابسبب عقلى اقتضى ذلك لكن إدراك العقل لجواز هذا المعنى موقوف على تحقيق النظر الذى قدمناه، فبان لك بهذا أن الجائز ينقسم أيضا إلى ضرورى ونظرى كما انقسم القسمان اللذان قبله، واتضح بهذا أن الأقسام الثلاثة قد تفرعت إلى ستة أقسام من ضرب ثلاثة فى اثنين إذ كل قسم منها فيه قسمان وإنما قيدنا الصحة بالعقل فى حق الجائز فقلنا فيه مايصح فى العقل ليدخل فيه نحو جواز العذاب فى حق المطيع فإن العقل هو الحاكم بصحة وجود العذاب وعدمه فى حقه بمعنى أنه لو وقع كل منهما لم يلزم من وقوعه نقص فى حقه تعالى ولا محال ألبتة، أما الشرع فقد بين أن الله تعالى قد اختار بمحض فضله للمؤمن المطيع أحد الأمرين الجائزين فى حقه تعالى وهو الثواب والنعيم المقيم كما اختار تعالى بعدله للكافر الجائز الآخر وهو النار والعذاب الأليم. واعلم أن الحركة والسكون للجرم يصح أن يمثل

بهما لأقسام الحكم العقلى الثلاثة ، فالواجب العقلى ثبوت أحدهما لابعينه للجرم ، والمستحيل نفيهما معا عن الجرم ، والجائز ثبوت أحدهما بالخصوص للجرم ، واعلم أن معرفة هذه الأقسام الثلاثة وتكريرها تأنيس للقلب بأمثلتها حتى لايحتاج الفكر فى استحضار معانيها إلى كلفة أصلا مماهو ضرورى على كل عاقل يريد أن يفوز بمعرفة الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام بل قد قال إمام الحرمين وجماعة : إن معرفة هذه الأقسام الثلاثة هى نفس العقل فمن لم يعرف معانيها فليس بعاقل والله الموفق

﴿ص﴾ وَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ شَرْعًا أَنْ يَعْرِفَ مَا يَجِبُ فِى حَقِّ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ ، وَمَايَسْتَحِيلُ ، وَمَا يَجُوزُ ، وَكَذَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ مِثْلَ ذٰلِكَ فِى حَقِّ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

﴿ش﴾ يعنى أنه يجب شرعا على كل مكلف وهو البالغ العاقل أن يعرف ما ذكر لأنه بمعرفة ذلك يكون مؤمنا محققا لإيمانه على بصيرة فى دينه وإنما قال يعرف ولم يقل يجزم إشارة إلى أن المطلوب فى عقائد الإيمان المعرفة وهى الجزم المطابق عن دليل ولا يكفى فيها التقليد وهو الجزم المطابق فى عقائد الإيمان بلادليل . وإلى وجوب المعرفة وعدم الاكتفاء بالتقليد ذهب جمهور أهل العلم كالشيخ أبى الحسن الأشعرى والقاضى أبى بكر الباقلانى وإمام الحرمين وحكاه ابن القصار عن مالك أيضا ، ثم اختلف الجمهور القائلون بوجوب المعرفة ، فقال بعضهم : المقلد مؤمن إلا أنه عاص بترك المعرفة التى ينتجها النظر الصحيح ، وقال بعضهم : إنه مؤمن ولا يعصى إلا إذا كان فيه أهلية لفهم النظر الصحيح ، وقال بعضهم : المقلد ليس بمؤمن

أصلا ، وقد أنكره بعضهم ، ولإمام الحرمين فى الشامل تقسيم المكلفين إلى أربعة أقسام : فمن عاش بعد البلوغ زمنا يسعه للنظر فيه ونظر يختلف فى صحة إيمانه ، وإن لم ينظر لم يختلف فى عدم صحة إيمانه . ومن عاش بعده زمنا لا يسعه النظر وشغل ذلك الزمان اليسير بما يقدر عليه فيه من بعض النظر لم يختلف فى صحة إيمانه ، وإن أعرض عن استعمال فكره فيما يسعه ذلك الزمان اليسير بما يقدر عليه فيه من النظر ففى صحة إيمانه قولان : والأصح عدم الصحة ، قلت ولعلّ هذا التقسيم إنما هو فيمن لا جزم عنده بعقائد الإيمان أصلا ولو بالتقليد ، وذهب غير الجمهور إلى أن النظر ليس بشرط فى صحة الإيمان بل وليس بواجب أصلا وإنما هو من شروط الكمال فقط وقد اختار هذا القول الشيخ العارف الولى ابن أبى جمرة والإمام القشيرى والقاضى أبى الوليد بن رشد والإمام أبو حامد الغزالى وجماعة ، والحق الذى يدلّ عليه الكتاب والسنة وجوب النظر الصحيح مع التردّد فى كونه شرطا فى صحة الإيمان أولا ، والراجح أنه شرط فى صحته ، وقد عزا ابن العربى القول بأنه تعالى يعلم بالتقليد إلى المبتدعة ونصه فى كتابه المتوسط فى الاعتقاد :

اعلموا علمكم الله تعالى أن هذا العلم المكلف به لا يحصل ضرورة ولا إلهاما ولا يصح التقليد فيه ولا يجوز أن يكون الخبر طريقا إليه ، وإنما الطريق إليه النظر ورسمه أنه الفكر المرتب فى النفس على طريق يفضى إلى العلم أو الظنّ يطلب به من قام به علما فى العلميات أو غلبة ظنّ فى المظنونات ولو كان هذا العلم يحصل ضرورة لأدرك ذلك جميع العقلاء أو إلهاما لوضع الله تعالى ذلك فى قلب كلّ حىّ ليتحقق به التكليف وأيضا فإن الإلهام نوع ضرورة وقد أبطلنا الضرورة ، ولا يصح أن يقال إنه تعالى يعلم بالتقليد كما قال جماعة من المبتدعة لأنه لو عرف بالتقليد لما كان قول واحد من

المقلدين أولى بالاتباع والانقياد إليه من الآخر كيف وأقوالهم متضادة مختلفة ولا يجوز أيضا أن يقال إنه يعلم بالخبر لأن من لم يعلم الله تعالى كيف يعلم أن الخبر خبره ، فثبت أن طريقه النظر وهو أول واجب على المكلف إذ المعرفة أول الواجبات ولا تحصل إلا به فبضرورة تقديمه عليها تثبت له صفة الوجوب قبلها و إيجاب المعرفة بالله تعالى معلوم من دين الأمة ضرورة

﴿فصل﴾ ومع أنا نقول إن المعرفة واجبة و إن النظر الموصل إليها واجب فإن بعض أصحابنا يقول إن من اعتقد فى ربّه تعالى الحق وتعلق به اعتقاده على الوجه الصحيح فى صفاته فإنه مؤمن موحد ، ولكن هذا لا يصح فى الأغاب إلا لناظر ولو حصل لغير ناظر لم نأمن أن يتخلخل اعتقاده فلابدّ عندنا أن يعلم كل مسألة من مسائل الاعتقاد بدليل واحد ولا ينفعه اعتقاده إلا أن يصدر عن دليل عليه فلو اخترم وقد تعلق اعتقاده بالبارى تعالى كما ينبغى وعجز عن النظر فقال جماعة منهم إنه يكون مؤمنا ، و إن تمكن من النظر ولم ينظر قال الأستاذ أبو إسحاق يكون مؤمنا عاصيا بترك النظر وبناه على أصل الشيخ أبى الحسن ، فأما كونه مؤمنا مع العجز والاخترام فظاهر إن شاء الله تعالى ، وأما كونه مؤمنا مع القدرة على النظر وتركه فقوله فيه نظر عندى ولا أعلم صحته الآن ، فإن قيل : قد أوجبتم النظر قبل الإيمان على ما استقر من كلامكم فإذا دعى المكلف إلى المعرفة فقال حتى أنظر فأنا الآن فى مهلة النظر وتحت ترداده ، ماذا تقولون ؟ أتلزمونه الإقرار بالإيمان فتنقضون أصلكم فى أن النظر يجب قبلها ؟ أم تمهلونه فى نظره إلى حدّ يتطاول به المدى فيه ؟ أم تقدرونه بمقدار فتحكمون عليه بغير نصّ ؟ فالجواب أنا نقول : أما القول بوجوب الإيمان قبل المعرفة فضعيف لأن إلزام التصديق بما لا تعلم صحته يؤدى إلى التسوية بين النبى والمتنبى وأنه يؤمن أولا فينظر

فيتبين له الحق فيتمادى أو يتبين له الباطل فيرجع وقد اعتقد الكفر ، وأما إذا دعا المطلوب بالإيمان إلى النظر فيقال له إن كنت تعلم النظر فاسرده و إن كنت لا تعلمه فاسمعه ويسرد فى ساعة عليه فإن آمن تحقق استرشاده و إن أبى تبين عناده فوجب استخراجه منه بالسيف أو يموت و إن كان ممن ثاقن أهل الإسلام وعلم طريق الإيمان لم يمهل ساعة ألا ترى أن المرتدّ استحب فيه العلماء الإمهال لعله إنما ارتدّ لريب فيتربص به مدّة لعله أن يراجع الشك باليقين والجهل بالعلم ولا يجب ذلك لحصول العلم بالنظر الصحيح أولا وكيف يصح لناظر أن يقول إن الإيمان يجب أولا قبل النظر ولا يصح فى المعقول إيمان بغير معلوم وذلك الذى يجده المرء حسن ظنّ فى نفسه بمخبره و إلا فإن تطرّق إليه التجويز أو التكذيب تطرّق وأيضا فإن النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم دعا الخلق إلى النظر أولا فلما قامت الحجة به وبلغ غاية الإعذار فيه حملهم على الإيمان بالسيف ، ألا ترى أن كل من دعاه إلى الإيمان قال له اعرض علىّ آيتك فيعرضها عليه فيظهر له الحق فيؤمن فيأمن أو يعاند فيهلك انتهى (قلت) هذا كلام ابن العربى وهو حسن واستشكل القول بأن المقلد ليس بمؤمن لأنه يلزم عليه تكفير أكثر عوام المسلمين وهم معظم هذه الأمة وذلك مما يقدح فيما علم أن سيدنا ونبينا محمدا صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم أكثر الأنبياء أتباعا وورد أن أمته المشرّفة ثلثا أهل الجنة (وأجيب) بأن المراد بالدليل الذى تجب معرفته على جميع المكلفين هو الدليل الجلى وهو الذى يحصل فى الجملة للمكلف العلم والطمأنينة بعقائد الإيمان بحيث لا يقول قلبه فيها لا أدرى سمعت الناس يقولون شيئا فقلته ، ولا يشترط معرفة النظر على طريق المتكلمين من تحرير الأدلة وترتيبها ودفع الشبهة الواردة عليها ولا القدرة على التعبير عما حصل فى القلب من

الدليل الجلى الذى حصلت به الطمأنينة ، ولاشك أن النظر على هذا الوجه
غير بعيد حصوله لمعظم هذه الأمة أولجميعها فيما قبل آخر الزمان الذى يرفع
فيه العلم النافع ويكثر فيه الجهل المضر ولا يبقى فيه التقليد المطابق فضلا عن
المعرفة عند كثير ممن يظن به العلم ، فضلا عن كثير من العامة ، ولعلنا أدركنا
هذا الزمان بلا ريب والله المستعان ولا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ،
وفى الحديث عن أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى
عليه وعلى آله وسلم (تكون فتنة فى آخر الزمان يصبح الرجل فيها مؤمنا
ويمسى كافرا إلا من أجاره الله تعالى بالعلم) وبالجملة فالاحتياط فى الأمور
هو أحسن مايسلكه العاقل لاسيما فى هذا الأمر الذى هو رأس المال وعليه
ينبنى كل خير فكيف يرضى ذوهمة أن يرتكب منه مايكدر مشربه من
التقليد المختلف فيه ويترك المعرفة والتعلم للنظر الصحيح الذى يأمن معه من
كل مخوف ثم يلتحق معه بدرجة العلماء الداخلين فى سلك قوله تعالى (شهد
الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط الآية) فلا يتقاصر
عن هذه الرتبة المأمونة الزكية إلا ذونفس ساقطة وهمة خسيسة ، لكن على
العاقل أن ينظر أولا فيمن يحقق له هذا العلم ويختاره للصحبة من الأئمة
المؤيدين من الله تعالى بنور البصيرة الزاهدين بقلوبهم فى هذا العرض الحاضر
المشفقين على المساكين الرؤفاء على ضعفاء المؤمنين فمن وجد أحدا على هذه
الصفة فى هذا الزمان القليل الخير جدا فليشد يده عليه وليعلم أنه لايجد له
والله أعلم ثانيا فى عصره إذ من يكون على هذه الصفة أو قريبا منها لايكون
منهم فى أواخر الزمان إلا الواحد ومن يقرب منه على مانص عليه العلماء ثم
الغالب عليه فى هذا الزمان الخفاء بحيث لا يرشد إليه الا قليل من الناس
وليشكر الله سبحانه الذى أطلعه على هذه الغنيمة العظمى آناء الليل وأطراف

النهار إذ أظفره مولاه الكريم جلّ وعزّ بمحض فضله بكنز عظيم من كنوز الجنة ينفق منه ماشاء وكيف شاء وقليل أن يتفق اليوم وجود مثل هذا إلا لنادر من السعداء وأما من يقرأ هذا العلم على من يتعاطى التعرّض له وليس على الصفة التى ذكرناها فمفاسد صحبة هذا دنيا وأخرى أكثر من مصالحها وما أكثر وجود مثل هؤلاء فى زماننا فى كل موضع ، نسأل الله تعالى السلامة من شر أنفسنا ومن شر كل ذى شر ببركة نبيه سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، وليحذر المبتدى جهده أن يأخذ أصول دينه من الكتب التى حشيت بكلام الفلاسفة وأولع مؤلفها بنقل هوسهم وما هو كفر صراح من عقائدهم التى ستروا نجاستها بما ينبهم على كثير من اصطلاحاتهم وعباراتهم التى أكثرها أسماء بلا مسميات وذلك ككتب الإمام الفخر فى علم الكلام وطوالع البيضاوى ومن حذا حذوهما فى ذلك وقل أن يفلح من أولع بصحبة كلام الفلاسفة أو يكون له نور إيمان فى قلبه أو لسانه وكيف يفلح من والى من حادّ الله ورسوله وخرق حجاب الهيبة ونبذ الشريعة وراء ظهره وقال فى حق مولانا جل وعز وفى حق رسله عليهم الصلاة والسلام ماسوّلت له نفسه الحمقاء ودعاه إليه وهمه المختل ، ولقد خذل بعض الناس فتراه يشرف كلام الفلاسفة الملعونين ويشرف الكتب التى تعرضت لنقل كثير من حماقاتهم لما تمكن فى نفسه الأمارة بالسوء من حبّ الرياسة وحبّ الإغراب على الناس بما ينبهم على كثير منهم من عبارات واصطلاحات يوهمهم أن تحتها علوما دقيقة نفيسة وليس تحتها إلا التخليط والهوس والكفر الذى لايرضى أن يقوله عاقل وربما يؤثر بعض الحمقى هوسهم على الاشتغال بما يعنيه من التفقه فى أصول الدين وفروعه على طريق السلف الصالح والعمل بذلك ويرى هذا

الخبيث لانطماس بصيرته وطرده عن باب فضل الله تعالى إلى باب غضبه أن المشتغلين بالتفقه فى دين الله تعالى العظيم الفوائد دنيا وأخرى بلداء الطبع ناقصى الذكاء ، فما أجهل هـذا الخبيث وأقبح سريرته وأعمى قلبه حتى رأى الظلمة نورا والنور ظلمة « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ، سماعون للكذب أكالون للسحت » نسأله سبحانه أن يعاملنا ويعامل جميع أحبتنا إلى الممات بمحض فضله وأن يلطف بجميع المؤمنين ويقيهم فى هذا الزمان الصعب موارد الفتن بجوده وكرمه ببركة أشرف الخلق سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم

﴿ص﴾ فَمِمَّا يَجِبُ لِمَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ عِشْرُونَ صِفَةً

﴿ش﴾ أشار بمن التبعيضية إلى أن صفات مولانا جلّ وعزّ الواجبة له لا تنحصر فى هذه العشرين . إذ كمالاته تعالى لا نهاية لها . لكن العجز عن معرفة مالم ينصب عليه دليل عقلى ولا نقلى لا نؤاخذ به بفضل الله تعالى

﴿ص﴾ وَهِيَ الْوُجُودُ

﴿ش﴾ معناه ظاهر وفى عدّ الوجود صفة على مذهب الشيخ الأشعرى تسامح لأنه عنده عين الذات وليس بزائد عليها والذات ليست بصفة لكن لما كان الوجود توصف به الذات فى اللفظ فيقال ذات مولانا جلّ وعز موجودة صح أن يعدّ صفة على الجملة ، وأما على مذهب من جعل الوجود زائدا على الذات كالإمام الرازى فعدّه من الصفات صحيح لا تسامح فيه ومنهم من جعله زائدا على الذات فى الحادث دون القديم وهو مذهب الفلاسفة

﴿ص﴾ وَالْقِـــدَمُ

﴿ش﴾ الأصح أن القدم صفة سلبية أى ليست بمعنى موجود فى نفسها كالعلم مثلا وإنمـا هو عبارة عن سلب العدم السابق على الوجود وإن شئت قلت هو عبارة عن عـدم الأولية للوجود ، وإن شئت قلت هو عبارة عن عدم افتتاح الوجود . والعبارات الثلاث بمعنى واحد هذا معنى القدم فى حقه تعالى باعتبار ذاته العلية ، وصفاته الجليلة السنية ، وأما معناه إذا أطلق فى حق الحادث كما إذا قلت مثلا هذا بناء قديم وعرجون قديم فهو عبارة عن طول مدة وجوده وإن كان حادثا مسبوقا بالعدم كما فى قوله تعالى (إنك لفى ضلالك القديم) وقوله عز وجل (كالعرجون القديم) والقدم بهذا المعنى على الله تعالى محال لأن وجوده جلّ وعزّ لا يتقيد بزمان ولا مكان لحـدوث كل منهما فلا يتقيد بواحد منهما إلا ماهو حادث مثلها ، وهل يجوز أن يتلفظ بلفظ القديم فى حقه تعالى فيقال هو جلّ وعزّ قديم لأن معناه واجب له جلّ وعزّ عقلا ونقلا أولا يتلفظ بذلك . وإنما يقال يجب له تعالى القدم أو نحو هذا من العبارات ولا يطلق عليه فى اللفظ اسم القديم لأن أسماءه جل وعز توقيفية ، هذا مما تردّد فيه بعض الأشـياخ ، لـكن قال العراقى فى شرح أصول السبكى عده الحليمى فى الأسماء وقال لم يرد فى الـكتاب نصا وإنما ورد فى السنة ، قال العراقى وأشار بذلك إلى ما رواه ابن ماجه فى سننه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وفيه عدّ القديم من التسعة والتسعين

﴿ص﴾ وَالْبَـــقَاءُ

﴿ش﴾ هو عبارة عن سلب العدم اللاحق للوجود وإن شئت قلت هو

عبارة عن عدم الآخرية للوجود والعبارتان بمعنى واحد ، وبعض الأئمة يقول معنى البقاء فى حقه تعالى استمرار الوجود فى المستقبل إلى غير نهاية كما أن معنى القدم فى حقه تعالى استمرار الوجود فى الماضى إلى غير غاية ، وكأن هذه العبارة يجنح قائلها إلى أن القدم والبقاء صفتان نفسيتان لأنهما عنده الوجود المستمر فى الماضى والمستقبل والوجود نفسى لعدم تحقق الذات بدونه ، وهذا المذهب ضعيف لأنهما لو كانتا نفسيتين لزم أن لا تعقل الذات بدونهما وذلك باطل بدليل أن الذات يعقل وجودها ثم يطلب البرهان على وجوب قدمها وبقائها ، وشذّ قوم فقالوا . إن القدم والبقاء صفتان موجودتان تقومان بالذات كالعلم والقدرة ، ولا يخفى ضعفه لأنه يلزم عليه أن يكونا قديمين أيضا بقدم آخر موجود وباقيين أيضا ببقاء آخر موجود ثم ينتقل الكلام إلى هذا القدم الآخر وهذا البقاء الآخر فيلزم فيهما ما لزم فى الأولين ويلزم التسلسل ، وأضعف من هذا القول قول من فرق وقال القدم سلبي والبقاء وجودى ، والحق الذى عليه المحققون أنهما صفتان سلبيتان أى كل منهما عبارة عن سلب معنى لا يليق به تعالى وليس لهما معنى موجود فى الخارج عن الذهن

﴿ص﴾ وَمُخَالَفَتُهُ تَعَالَى لِلْحَوَادِثِ

﴿ش﴾ أى لا يماثله تعالى شىء منها مطلقا لا فى الذات ولا فى الصفات ولا فى الأفعال . قال الله تعالى (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) فأول هذه الآية تنزيه وآخرها إثبات فصدرها يردّ على المجسمة وأضرابهم ، وعجزها يردّ على المعطلة النافين لجميع الصفات ، وحكمة تقديم التنزيه فى الآية وإن كان من باب تقديم السلب على الإثبات وإن كان الأولى فى كثير من المواطن

العكس أنه لو بدأ بالسمع والبصر لأوهم التشبيه، إذ الذى يؤلف فى السمع أنه بأذن وفى البصر أنه بحدقة وأن كلا منهما إنما يتعلق فى الشاهد ببعض الموجودات دون بعض وعلى صفة مخصوصة من عدم البعد جدا ونحو ذلك فبدأ فى الآية بالتنزيه ليستفاد منه نفى التشبيه له تعالى مطلقا حتى فى السمع والبصر اللذين ذكرا بعد، فإن سمعه تعالى وبصره ليسا كسمع الخلائق وبصرهم لأن سمعه تعالى وبصره صفتان قائمتان بذاته العلية التى يستحيل عليها الجرمية والجارحة ولوازمها واجبتا القدم والبقاء متعلقتان بكل موجود قديما كان أو حادثا ذاتا كان أو صفة ظاهرا كان أو باطنا

﴿ص﴾ وَقِيَامُهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ أَىْ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى مَحَلٍّ وَلَا مُخَصِّصٍ

﴿ش﴾ يعنى أنه مما يجب له تعالى أن يقوم بنفسه أى بذاته ومعنى قيامه تعالى بنفسه سلب افتقاره لشىء من الأشياء فلا يفتقر تعالى إلى محلّ أى ذات سوى ذاته يوجد فيها كما توجد الصفة فى الموصوف لأن ذلك لا يكون إلا للصفات وهو تعالى ذات موصوف بصفة، وليس جلّ وعزّ بصفة كما تدعيه النصارى ومن فى معناهم من الباطنية، أهلك الله تعالى جميعهم. وسيأتى برهان ذلك عند تعرضنا إن شاء الله للبراهين، وكذلك لا يفتقر تعالى إلى مخصص أى فاعل يخصه بالوجود لا فى ذاته ولا فى صفة من صفاته لوجوب القدم والبقاء لذاته تعالى ولجميع صفاته وإنما يحتاج إلى المخصص أى الفاعل من يقبل العدم ومولانا جلّ وعزّ لا يقبله فإذاً يستحيل على مولانا جلّ وعزّ الافتقار عموما، وبهذا تعرف أن مرادنا بالمحل فى أصل العقيدة الذات ومرادنا بالمخصص الفاعل، فبعدم افتقاره تعالى إلى محل أى ذات أخرى، لزم أنه جلّ وعزّ ذات لا صفة، وبعدم افتقاره تعالى إلى مخصص أى فاعل، لزم أن ذاته جلّ

وعزّ ليست كسائر الذوات التى لا تفتقر هى أيضا إلى محل كالأجرام مثلا لأن هذه وإن كانت مستغنية عن المحل أى عن ذات تقوم بها قيام الصفة بالموصوف فهى مفتقرة ابتداء ودواما افتقارا ضروريا لازما إلى المخصص أى الفاعل وهو مولانا جلّ وعزّ فإذاً القيام بالنفس هو عبارة عن الغنى المطلق وذلك لا يمكن أن يكون إلا لمولانا جلّ وعزّ، قال جل من قائل (ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد) وقال تعالى (الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) فأثبت تعالى بقوله (الله الصمد) افتقار كل ماسواه إليه جلّ وعزّ إذ الصمد هو الذى يصمد إليه فى الحوائج أى يقصد فيها ومنه تسأل ولاشك أن كل ماسواه تعالى صامد له أى مفتقر إليه ابتداء ودواما بلسان حاله أو بلسان مقاله أو بهما معا، وأثبت تعالى بقوله (لم يلد ولم يولد) وجوب استغنائه جلّ وعزّ عن المؤثر والأثر، فلا حاجة لله تعالى إلى المؤثر، ولا علة لوجوده جلّ وعزّ وإليه الإشارة بقوله تعالى (ولم يولد) أى لم يتولد وجوده تعالى عن شىء: أى لاسبب لوجوده تعالى لوجوب قدمه وبقائه، وكذلك لا حاجة له تعالى إلى الأثر وهو ماأوجد تعالى من الحوادث ولا غرض له جلّ وعزّ فى شىء منها تعالى عن الأغراض والأعراض ولا معين له تعالى فى شىء منها بل هو جلّ وعزّ فاعل بمحض الاختيار بلا واسطة ولا معالجة ولا علة، وإليه الإشارة بقوله تعالى (لم يلد) أى لم يتولد وجود شىء عن ذاته العلية بأن يكون بعضا منه أو ناشئا عنه من غير قصد أو ناشئا عنه تعالى باستعانة بمن يزاوجه على ذلك أو ثم غرض يحمل على ذلك كما هو شأن الزوجين ونحوهما بالنسبة للولد ونحوه فى جميع ماذكر إذ لو كان تعالى كذلك لزم أن يماثل الحوادث كيف وهو تبارك ليس له كفوا أحد، فلا والد إذاً ولا صاحبة ولا ولد ولا مماثلة بينه وبين الحوادث

بوجه من الوجوه فتبارك الله رب العالمين

﴿ص﴾ وَالْوَحْدَانِيَّةُ أَىْ لَا ثَانِىَ لَهُ فِى ذَاتِهِ وَلَا فِى صِفَاتِهِ وَلَا فِى أَفْعَالِهِ

﴿ش﴾ يعنى أن الواحدانية فى حقه تعالى تشتمل على ثلاثة أوجه أحدها : نفى الكثرة فى ذاته تعالى ويسمى الكم المتصل . الثانى : نفى النظير له جلّ وعزّ فى ذاته أو فى صفة من صفاته ويسمى الكم المنفصل . الثالث : انفراده تعالى بالإيجاد والتدبير العام بلاواسطة ولا معالجة فلا مؤثرسواه تعالى فى أثر ما عموما قال جلّ من قائل (إنا كل شىء خلقناه بقدر) وقال تعالى (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه) وقال جلّ وعزّ (له ملك السموات والأرض) وقال تبارك وتعالى (والله خلقكم وماتعملون)

﴿ص﴾ فَهٰذِهِ سِتُّ صِفَاتٍ الْأُولَى نَفْسِيَّةٌ وَهِىَ الْوُجُودُ وَالْخَمْسَةُ بَعْدَهَا سَلْبِيَّةٌ

﴿ش﴾ حقيقة الصفة النفسية هى الحال الواجبة للذات مادامت الذات غير معللة بعلة كالتحيز مثلا للجرم فإنه واجب للجرم مادام الجرم وليس ثبوته له معللا بعلة ، واحترز بقوله غير معللة بعلة عن الأحوال المعنوية ككون الذات عالمة وقادرة ومريدة مثلا فإنها معللة بقيام العلم والقدرة والإرادة بالذات ، واحترزأيضا من صفات المعانى . أماالعلم والقدرةفليستا من الصفات النفسية ولاالمعنوية لأن هاتين أحوال والحال ليست بموجودة فى نفسها ولامعدومةوالعلم والقدرة صفتانموجودتان فى أنفسهما قائمتان

بموجود ، فإذا عرفت هذا فاعلم أن الوجود إنما يصح أن يكون صفة نفسية عند من يجعله زائدا على الذات وأما عند من يجعله نفس الذات فليس بصفة أصلا وقد سبق الاعتذار عن عدّه من الصفات وبمثل ذلك يعتذر هنا عن عده من الصفات النفسية أى معنى الوجود راجع للذات سواء قلنا إنه عين الذات أو زائد على حقيقتها لأن الذات لا تثبت فى الخارج عن الذهن إلا إذا كانت موجودة ﴿قوله والخمسة بعدها سلبية﴾ يعنى أن مدلول كل واحد منها عدم أمر لا يليق به مولانا جلّ وعزّ ، وليس مدلولها صفة موجودة فى نفسها كما فى العلم والقدرة ونحوهما من سائر صفات المعانى الآتية . فالقدم معناه سلب وهو نفى سبق العدم على الوجود وإن شئت قلت هو نفى الأولية للوجود والمعنى واحد . والبقاء هو نفى لحوق العدم للوجود وإن شئت قلت نفى الآخرية للوجود . والمخالفة للحوادث هى نفى المماثلة لها فى الذات والصفات والأفعال . والقيام بالنفس هو نفى افتقار الذات العلية إلى محلّ أى ذات أخرى تقوم بها قيام الصفة بالموصوف ونفى افتقاره تعالى إلى مخصص أى فاعل . والوحدانية عدم الاثنينية فى الذات العلية والصفات والأفعال وإن شئت قلت هى نفى الكمية المتصلة والمنفصلة ونفى الشريك فى الأفعال عموما والمعنى واحد وبالله التوفيق

﴿ص﴾ ثُمَّ يَجِبُ لَهُ تَعَالَى سَبْعُ صِفَاتٍ تُسَمَّى صِفَاتِ الْمَعَانِى

﴿ش﴾ مرادهم بصفات المعانى الصفات التى هى موجودة فى نفسها سواء كانت حادثة كبياض الجرم مثلا وسواده ، أو قديمة كعلمه تعالى وقدرته فكل صفة موجودة فى نفسها فإنها تسمى فى الاصطلاح صفة معنى وإن كانت الصفة غير موجودة فى نفسها فإن كانت واجبة للذات مادامت الذات

غير معللة بعلة سميت صفة نفسية أوحالا نفسية ومثالها التحيز للجرم وكونه قابلا للأعراض مثلا . وإن كانت الصفة غير موجودة فى نفسها إلا أنها معللة بعلة إنما تجب للذات مادامت علتها قائمة بالذات سميت صفة معنوية أوحالا معنوية ، ومثالها كون الذات عالمة أوقادرة مثلا

﴿ص﴾ وَهِيَ الْقُدْرَةُ وَالإِرَادَةُ الْمُتَعَلِّقَتَانِ بِجَمِيعِ الْمُمْكِنَاتِ

﴿ش﴾ يعنى أن القدرة والإرادة متعلقهما واحد وهو الممكنات دون الواجبات والمستحيلات ، إلا أن جهة تعلقهما بالممكنات مختلفة فالقدرة صفة تؤثر فى إيجاد الممكن وإعدامه ، والإرادة صفة تؤثر فى اختصاص أحد طرفى الممكن من وجود أوعدم أوطول أوقصر ونحوها بالوقوع بدلا عن مقابله فصار تأثير القدرة فرع تأثير الإرادة إذ لا يوجد مولانا جلّ وعزّ من الممكنات أويعدم بقدرته إلا ماأراد الله تعالى وجوده أو إعدامه وتأثير الإرادة على وفق العلم عند أهل الحق فكل ما علم الله تبارك وتعالى أنه يكون من الممكنات أولا يكون فذلك مراده جلّ وعزّ ، والمعتزلة قبحهم الله تعالى جعلوا تعلق الإرادة تابعا للأمر فلا يريد عندهم مولانا جلّ وعزّ إلا ما أمر به من الإيمان والطاعة سواء وقع ذلك أم لا . فعندنا إيمان أبى جهل مأمور به غير مراد له تبارك وتعالى لأنه جلّ وعزّ علم عدم وقوعه وكفر أبى جهل منهىّ عنه وهو واقع بإرادة الله تعالى وقدرته . وعند المعتزلة قبح الله تعالى رأيهم إيمانه هو المراد لله تعالى لا كفره ، فلزمهم أن يقع نقص فى ملك مولانا جلّ وعزّ إذ وقع فيه على قولهم ما لا يريده تعالى من له ملك السموات والأرض وما بينهما ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وبالجملة فالتعلقات عند أهل الحق ثلاثة مرتبة : تعلق القدرة ، وتعلق الإرادة

وتعلق العلم بالممكنات . فالأول مرتب على الثانى ، والثانى مرتب على الثالث وإنما لم تتعلق القدرة والإرادة بالواجب والمستحيل لأن القدرة والإرادة لما كانتا صفتين مؤثرتين ومن لازم الأثر أن يكون موجودا بعد عدم لزم أن مالا يقبل العدم أصلا كالواجب لايقبل أن يكون أثرا لهما وإلا لزم تحصيل الحاصل ومالا يقبل الوجود أصلا كالمستحيل لايقبل أيضا أن يكون أثرا لهما وإلا لزم قلب الحقائق برجوع المستحيل عين الجائز فلا قصور أصلا فى عدم تعلق القدرة والإرادة القديمتين بالواجب والمستحيل بل لو تعلقتا بهما لزم حينئذ القصور لأنه يلزم على هذا التقدير الفاسد أن يجوز تعلقهما بإعدام أنفسهما بل وبإعدام الذات العلية وبإثبات الألوهية لمن لا يقبلها من الحوادث وسلبها عمن تجب له وهو مولانا جلّ وعزّ وأى نقص وفساد أعظم من هذا . وبالجملة فذلك التقدير الفاسد يؤدى إلى تخليط عظيم لايبقى معه شىء من الإيمان ولا شىء من العقليات أصلا ، ولخفاء هذا المعنى على بعض الأغبياء من المبتدعة صرّح بنقيض ذلك ، فنقل عن ابن حزم أنه قال فى الملل والنحل إنه تعالى قادر أن يتخذ ولدا إذ لو لم يقدر لكان عاجزا فانظر اختلال عقل هذا المبتدع كيف غفل عما يلزمه على هذه المقالة الشنيعة من اللوازم التى لاتدخل تحت وهم وكيف فاته أن العجز إنما يكون لو كان القصور جاء من ناحية القدرة ، أما إذا كان لعدم تعلق القدرة فلا يتوهم عاقل أن هذا عجز . وذكر الأستاذ أبو إسحاق الاسفراينى أن أول من أخذ منه هذا المبتدع وأشياعه ذلك بحسب فهمهم الركيك من قصة إدريس عليه السلام حيث جاءه إبليس فى صورة آدمى وهو يخيط ويقول فى كل دخلة الإبرة وخرجتها سبحان الله والحمد لله جاءه بقشرة بيضة فقال له آلله تعالى يقدر أن يجعل الدنيا فى هذه القشرة فقال له فى جوابه الله تعالى قادر أن يجعل الدنيا فى سم

هذه الإبرة ونخس إحدى عينيه فصار أعور قال وهذا وإن لم يرو عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فقد ظهر وانتشر ظهورا لا يردّ . قال : وقد أخذ أبو الحسن الأشعرى من جواب إدريس عليه السلام أجوبة فى مسائل كثيرة من هذا الجنس ، وأوضح هذا الجواب فقال إن أراد السائل أن الدنيا على ماهى عليه والقشرة على ماهى عليه فلم يقل مايعقل ، فإن الأجسام الكثيرة يستحيل أن تتداخل وتكون فى حيز واحد ، وإن أراد أنه يصغر الدنيا قدر القشرة ويجعلها فيها أو يكبر القشرة قدر الدنيا ويجعل الدنيا فيها فلعمرى الله تعالى قادر على ذلك وعلى أكبر منه » قال بعض المشايخ وإنما لم يفصل إدريس عليه السلام الجواب هكذا لأن السائل متعنت ولهذا عاقبه على هذا السؤال بنخس العين وذلك عقوبة كل سائل مثله

﴿ص﴾ وَالْعِلْمُ الْمُتَعَلِّقُ بِجَمِيعِ الْوَاجِبَاتِ وَالْجَائِزَاتِ وَالْمُسْتَحِيلَاتِ

﴿ش﴾ العلم هو صفة ينكشف بها ماتتعلق به انكشافا لا يحتمل النقيض بوجه من الوجوه ، فمعنى قولنا المتعلق بجميع الواجبات الخ أن جميع هذه الأمور منكشفة لعلمه تعالى ومتضحة له تعالى أزلا وأبدا بلا تأمل ولا استدلال اتضاحا لا يمكن أن يكون فى نفس الأمر على خلاف ماعلمه عز وجل

﴿ص﴾ وَالْحَيَاةُ وَهِيَ لَا تَتَعَلَّقُ بِشَيْءٍ

﴿ش﴾ الحياة صفة تصحح لمن قامت به أن يتصف بالإدراك ومعنى كونها لا تتعلق بشىء أنها لا تقتضى أمرا زائدا على القيام بمحلها ، والصفة المتعلقة هى التى تقتضى أمرا زائدا على ذلك . ألا ترى أن العلم بعد قيامه بمحله يطلب أمرا يعلم به وكذا القدرة والإرادة ونحوهما . وبالجملة فجميع صفات

المعانى متعلقة أى طالبة لزائد على القيام بمحلها سوى الحياة وهذا التعلق نفسى لتلك الصفات كما أن قيامها بالذات نفسى لها أيضا

﴿ص﴾ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ الْمُتَعَلِّقَانِ بِجَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ

﴿ش﴾ السمع والبصر صفتان ينكشف بهما الشىء ويتضح كالعلم، إلاأن الانكشاف بهما يزيد على الانكشاف بالعلم بمعنى أنه ليس عينه وذلك معلوم فى الشاهد ضرورة ومتعلقها أخص من متعلق العلم فكل ماتعلق به السمع والبصر تعلق به العلم ولا ينعكس إلاجزئيا، ونبه بقوله بجميع الموجودات على أن سمعه تعالى وبصره مخالفان لسمعنا وبصرنا فى التعلق، إذ سمعنا إنما يتعلق عادة ببعض الموجودات وهى الأصوات فى جهة مخصوصة وعلى وجه مخصوص من عدم البعد والسرجدا، وبصرنا إنما يتعلق عادة ببعض الموجودات وهى الأجسام وألوانها وأكوانها فى جهة مخصوصة وعلى صفة مخصوصة، وأماسمع مولانا جلّ وعزّ وبصره فيتعلقان بكل موجود قديما كان أو حادثا، فيسمع جلّ وعزّ ويرى فى أزله ذاته العلية وجميع صفاته الوجودية، ويسمع ويرى تبارك وتعالى مع ذلك فيما لايزال ذوات الكائنات كلها وجميع صفاتها الوجودية سواء كانت من قبيل الأصوات أو من غيرها أجساما كانت أوأكوانا أوألوانا أو غيرها

﴿ص﴾ وَالْكَلَامُ الَّذِى لَيْسَ بِحَرْفٍ وَلَاصَوْتٍ وَيَتَعَلَّقُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْعِلْمُ مِنَ الْمُتَعَلَّقَاتِ

﴿ش﴾ كلام الله تعالى القائم بذاته هو صفة أزلية ليس بحرف ولاصوت ولا يقبل العدم ومافى معناه من السكوت ولاالتبعيض ولاالتقديم ولا التأخير

ثم هو مع وحدته متعلق أى دال أزلا وأبدا على جميع معلوماته التى لا نهاية لها وهو الذى عبر عنه بالنظم المعجز المسمى أيضا بكلام الله تعالى حقيقة لغوية لوجود كلامه عزّ وجلّ فيه بحسب الدلالة لا بالحلول ويسميان قرآنا أيضا وكنه هذه الصفة وسائر صفاته تعالى محجوب عن العقل كذاته جلّ وعزّ فليس لأحد أن يخوض فى الكنه بعد معرفة مايجب لذاته تعالى ولصفاته وما يوجد فى كتب علماء الكلام من التمثيل بالكلام النفسى فى الشاهد عند ردّهم على المعتزلة القائلين بانحصار الكلام فى الحروف والأصوات لا يفهم منه تشبيه كلامه جلّ وعزّ بكلامنا النفسى فى الكنه « تعالى وجلّ عن أن يكون له شريك فى ذاته أو صفاته أو أفعاله » وكيف يتوهم أن كلامه تعالى مماثل لكلامنا النفسى وكلامنا النفسى أعراض حادثة يوجد فيها التقديم والتأخير وطروّ البعض بعد عدم البعض الذى يتقدمه ويترتب وينعدم بحسب وجود جميع ذلك فى الكلام اللفظى ، فمن توهم هذا فى كلامه تعالى فليس بينه وبين الحشوية ونحوهم من المبتدعة القائلين بأن كلامه تعالى حروف وأصوات فرق ، وإنما مقصد العلماء بذكر الكلام النفسى فى الشاهد النقض على المعتزلة فى حصرهم الكلام فى الحروف والأصوات ، فقيل لهم ينتقض حصركم ذلك بكلامنا النفسى فإنه كلام حقيقة وليس بحرف ولا صوت وإذا صح ذلك فكلام مولانا أيضا كلام ليس بحرف ولا صوت ، فلم يقع الاشتراك بينهما إلا فى هذه الصفة السلبية وهى أن كلام مولانا جلّ وعزّ ليس بحرف ولا صوت كما أن كلامنا النفسى ليس بحرف ولا صوت أما الحقيقة فمباينة للحقيقة كل المباينة . فاعرف هذا فقد زلت هنا أقدام لم تؤيد بنور من الملك العلام ، وهنا انتهى فى العقيدة ماعدّ من صفات المعانى ، وحاصلها أنها تنقسم إلى أربعة أقسام : قسم لا يتعلق بشىء وهو الحياة ، وقسم يتعلق بالممكنات

فقط وهو اثنان القدرة والإرادة ، وقسم يتعلق بجميع الموجودات وهو اثنان السمع والبصر ، وقسم يتعلق بجميع أقسام الحكم العقلى وهو العلم والكلام ، وأعمّ الصفات المتعلقة فى التعلق العلم والكلام ، وبين متعلق القدرة والإرادة وبين متعلق السمع والبصر عموم وخصوص من وجه فتزيد القدرة والإرادة بتعلقهما بالمعدوم الممكن ، ويزيد السمع والبصر بتعلقهما بالوجود الواجب كذات مولانا جلّ وعزّ وصفاته ، ويشترك القسمان فى تعلقهما بالوجود الممكن . وإنما اقتصر فى العقيدة على هذه السبع ولم يعدّ معها الصفة الثامنة وهى إدراكه تعالى الطعوم والروائح ونحوهما من الكيفيات التى تستدعى فى حقنا بحسب العادة اتصالات لأجل الخلاف الذى فى هذه الصفة هل هى فى حقه تعالى ترجع إلى العلم أم هى زائدة على العلم ، ويكون إدراكه تعالى لتلك الأمور بإدراك زائد على العلم من غير اتصال بها ولا تتكيف الذات العلية بما جرت العادة أن تتكيف به ذواتنا عند هذا الإدراك من اللذات والآلام ونحوهما ويتعلق هذا الإدراك على هذا القول فى حقه تعالى بكل موجود كسمعه جلّ وعزّ وبصره . والذى اختاره بعض المحققين فى هذا الإدراك الوقف لعدم ورود السمع به فلأجل ماوقع فيه من هذا الخلاف تركنا عدّه فى صفات المعانى واقتصرنا على المجمع عليه وبالله تعالى التوفيق

﴿ص﴾ ثُمَّ سَبْعُ صِفَاتٍ تُسَمَّى صِفَاتٍ مَعْنَوِيَّةً وَهِيَ مُلَازِمَةٌ لِلسَّبْعِ الْأُولَى

﴿ش﴾ إنما سميت هذه الصفات معنوية لأن الاتصاف بها فرع الاتصاف بالسبع الأولى ، فإن اتصاف محلّ من المحال بكونه عالما أوقادرا

مثلا لا يصح إلا إذا قام به العلم أو القدرة ، وقس على هذا ، فصارت السبع الأولى وهى صفات المعانى عللا لهذه أى ملزومة لها فلهذا نسبت هذه إلى تلك فقيل فيها صفات معنوية ولهذا كانت هذه سبعا مثل الأولى فالياء فى لفظ المعنوية ياء النسب نسبت إلى المعنى والواو فيها بدل من الألف التى فى المعنى

﴿ص﴾ وَهِىَ كَوْنُهُ تَعَالَى قَادِرًا وَمُرِيدًا وَعَالِمًا وَحَيًّا وَسَمِيعًا وَبَصِيرًا وَمُتَكَلِّمًا

﴿ش﴾ لما كانت هذه الصفات المعنوية لازمة لصفات المعانى رتبها على حسب ترتيب تلك ، فكونه تعالى قادرا لازم للصفة الأولى من صفات المعانى وهى القدرة القائمة بذاته تعالى ، وكونه جلّ وعزّ مريدا لازم للإرادة القائمة بذاته تعالى وهكذا إلى آخرها . واعلم أن عدّهم لهذه السبع فى الصفات هو على سبيل الحقيقة إن قلنا بصفات الأحوال وهى صفات ثبوتية ليست بموجودة ولا معدومة تقوم بموجود ، فتكون هذه الصفات المعنوية على هذه صفات ثابتة قائمة بذاته تعالى ، وأما إن قلنا بنفى الأحوال وأنه لا واسطة بين الوجود والعدم كما هو مذهب الأشعرى فالثابت من الصفات التى تقوم بالذات إنما هو السبع الأولى التى هى صفات المعانى . أما هذه فعبارة عن قيام تلك بالذات لا أن لهذه ثبوتا فى الخارج عن الذهن

﴿ص﴾ وَمِمَّا يَسْتَحِيلُ فِى حَقِّهِ تَعَالَى عِشْرُونَ صِفَةً ، وَهِىَ أَضْدَادُ الْعِشْرِينَ الْأُولَى

﴿ش﴾ مراده بالضد هنا الضد اللغوى وهو كل مناف سواء كان وجوديا

أوعدميا ، فكأنه يقول يستحيل فى حقه تعالى كل ماينافى صفة من الصفات الأولى ، لأن الصفات الأولى لما تقرر وجوبها له تعالى عقلا وشرعا وقد عرفت أن حقيقة الواجب مالا يتصور فى العقل عدمه ، لزم أن لا يقبل جلّ وعزّ الاتصاف بماينافى شيأ منها ، وأنواع المنافاة على ماتقرر فى المنطق أربعة : تنافى النقيضين ، وتنافى العدم والملكة ، وتنافى الضدين ، وتنافى المتضايفين . فكل نوع من هذه الأنواع الأربعة لايمكن الاجتماع فيه بين الطرفين . أما النقيضان فهما ثبوت أمر ونفيه كثبوت الحركة ونفيها . وأما العدم والملكة فهما ثبوت أمر ونفيه عما من شأنه أن يتصف به كالبصر والعمى مثلا ، فالبصر وجودى وهى الملكة ، والعمى نفيه عما من شأنه أن يتصف به بالبصر ، ولهذا لايقال فى الحائط أعمى ، لأنه ليس من شأنه أن يتصف بالبصر عادة وبهذا فارق هذا النوع النقيضين فإن كلا من النوعين وإن كان هو ثبوت أمر ونفيه لكن النفى فى تقابل العدم والملكة مقيد بنفى الملكة عما من شأنه أن يتصف بها وفى النقيضين لايتقيد بذلك ، وأما الضدان فهما المعنيان الوجوديان اللذان بينهما غاية الخلاف ولا تتوقف عقلية أحدهما على عقلية الآخر ومثالها البياض والسواد ومرادنا بغاية الخلاف التنافى بينهما بحيث لا يصح اجتماعهما ، واحترز بذلك من البياض مع الحركة مثلا فإنهما أمران وجوديان مختلفان فى الحقيقة لكن ليس بينهما غاية الخلاف التى هى التنافى لصحة اجتماعهما إذ يمكن أن يكون المحل الواحد متحركا أبيض وأما المتضايفان فهما الأمران الوجوديان اللذان بينهما غاية الخلاف وتتوقف عقلية أحدهما على عقلية الآخر كالأبوّة والبنوّة مثلا والمراد بالوجود فى المتضايفين أن كلا منهما ليس معناه عدم كذا لا أنهما موجودان فى الخارج إذ من العلوم عند المحققين أن الأبوّة والبنوّة أمران اعتباريان لاوجودلها

فى الخارج عن الذهن ، وأهل الأصول يجعلون أقسام المنافاة اثنين فقط تنافى الضدين وتنافى النقيضين ويجعلون العدم والملكة داخلين فى النقيضين ، والمتضايفين داخلين فى الضدين ، ولهذا يقولون المعلومات منحصرة فى أربعة أقسام : المثلين والضدين والخلافين ، والنقيضين ، لأن المعلومين إن أمكن اجتماعهما فهما الخلافان وإلا فإن لم يمكن مع ذلك ارتفاعهما فهما النقيضان وإن أمكن مع ذلك ارتفاعهما فإما أن يختلفا فى الحقيقة أم لا ، الأول الضدان والثانى المثلان ، فخرج من هذا أن القسم الأول من هذه الأقسام الخلافان وهما يجتمعان ويرتفعان كالكلام والقعود لزيد ، والثانى النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان كوجود زيد وعدمه ، والثالث الضدان لا يجتمعان وقد يرتفعان كالحركة والسكون فإنهما لا يجتمعان وقد يرتفعان لعدم محلهما الذى هو الجرم والرابع المثلان لا يجتمعان وقد يرتفعان كالبياض والبياض ، واحتج أصحابنا على أن المثلين لا يجتمعان بأن المحل لو قبل المثلين للزم أن يقبل الضدّين فإن القابل للشيء لا يخلو عنه أو عن مثله أو ضده فلو قبل المثلين لجاز وجود أحدهما فى المحل مع انتفاء الآخر فيخلفه ضده فيجتمع الضدان وهو محال

﴿ص﴾ وَهِىَ الْعَدَمُ وَالْحُدُوثُ وَطُرُوُّ الْعَدَمِ

﴿ش﴾ اعلم أنه رتب هذه العشرين المستحيلة على حسب ترتيب العشرين الواجبة فذكر ما ينافى الصفة الأولى ثم ما ينافى الثانية وهكذا على ذلك الترتيب إلى آخرها ، فالعدم نقيض الصفة الأولى وهى الوجود ، والحدوث نقيض الصفة الثانية وهى القدم ، وطرو العدم ويسمى الفناء وهو نقيض الصفة الثالثة وهى البقاء ، واستحالة العدم عليه تعالى تستلزم استحالة الصفتين الأخيرتين عليه جلّ وعزّ وهما الحدوث وطروّ العدم ، لأن العدم إذا كان مستحيلا

فى حقه تعالى لم يتصور لاسابقا ولالاحقا وبهذا تعرف أن وجوب الوجود له جلّ وعزّ يستلزم وجوب القدم والبقاء له تبارك وتعالى ، فعطف القدم والبقاء هنالك على الوجود من عطف الخاص على العام أو اللازم على الملزوم كعطف الحدوث وطرو العدم على العدم هنا وإنما لم يكتف بالأول فى الموضعين لأن المقصود ذكر الصفات الواجبة والمستحيلة على التفصيل لأنه لو استغنى فيها بالعام عن الخاص وبالملزوم عن اللازم لكان ذلك ذريعة إلى جهل كثير منها لخفاء اللوازم وعسر إدخال الجزئيات تحت كلياتها ، وخطر الجهل فى هذا العلم عظيم فينبغى الاعتناء فيه بمزيد الايضاح على قدر الإمكان والاحتياط البليغ لتحلية القلوب بيواقيت الإيمان وبالله سبحانه التوفيق وهو الهادى من يشاء بمحض فضله إلى سواء الطريق

﴿ص﴾ وَالْمُمَاثَلَةُ لِلْحَوَادِثِ بِأَنْ يَكُونَ جِرْمًا أَىْ تَأْخُذُ ذَاتُهُ الْعَلِيَّةُ قَدْرًا مِنَ الْفَرَاغِ أَوْ يَكُونَ عَرَضًا يَقُومُ بِالْجِرْمِ أَوْ يَكُونَ فِى جِهَةٍ لِلْجِرْمِ أَوْ لَهُ هُوَ جِهَةٌ أَوْ يَتَقَيَّدَ بِمَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ أَوْ تَتَّصِفَ ذَاتُهُ الْعَلِيَّةُ بِالْحَوَادِثِ أَوْ يَتَّصِفَ بِالصِّغَرِ أَوِ الْكِبَرِ أَوْ يَتَّصِفَ بِالْأَغْرَاضِ فِى الْأَفْعَالِ أَوِ الْأَحْكَامِ

﴿ش﴾ المثلان هما الأمران المتساويان فى جميع صفات النفس وهى التى لاتتقرر حقيقة الذات بدونها فالمتساويان فى بعض صفات النفس أوفى العرضيات وهى الصفات الخارجة عن حقيقة الذات ليسا بمثلين فزيد مثلا إنما يماثله من ساواه فى جميع صفاته النفسية وهى كونه حيوانا ذا نفس ناطقة أى مفكرة بالقوة ، أما ماساواه فى بعضها كالفرس الذى ساواه فى

مجرد الحيوانية فقط فليس مثلا له وكذا ماساواه فى الصفات العرضيات كالبياض الذى ساواه فى الحدوث وصحة الرؤية ونحو ذلك فليس أيضا مثلا له ، فإذا عرفت حقيقة المثلين فاعلم أن العالم كله منحصر فى الأجرام والأعراض وهى المعانى التى تقوم بالأجرام ، ولاشك أن من صفات نفس الجرم التحيز أى أخذه قدرا من الفراغ بحيث يجوز أن يسكن فى ذلك القدر أو يتحرك عنه ومن صفات نفسه قبوله للأعراض أى للصفات الحادثة من حركة وسكون واجتماع وافتراق وألوان وأعراض ونحو ذلك ، ومن صفات نفسه التخصيص ببعض الجهات وببعض الأمكنة وهذه الصفات كلها مستحيلة على مولانا جلّ وعزّ فيلزم أن لا يكون تعالى جرما ، وأما العرض فمن صفة نفسه قيامه بالجرم ومن صفات نفسه وجوب العدم له فى الزمان الثانى لوجوده بحيث لا يبقى أصلا وهذا كله مستحيل على مولانا جلّ وعزّ فليس اذاً بعرض لأنه تعالى يجب قيامه بنفسه على ماعرفت تفسيره فيما سبق ، ويجب له جلّ وعزّ القدم والبقاء فلايقبل العدم أصلا . وبالجملة فكل ماسوى مولانا جلّ وعزّ يلزمه الحدوث والافتقار إلى المخصص ومولانا جلّ وعزّ يجب له الوجود والغنى المطلق فيلزم اذاً أن يكون تبارك وتعالى مباينا لكل ما سواه أيا كان ذلك الغير جرما أو عرضا أو غيرهما إن قدّر أن فى العالم ما ليس بجرم ولا عرض إذ على تقدير وجود هذا القسم فى العالم فهو حادث بدليل الإجماع كما أن القسمين الأوّلين حادثان بدليل العقل وبهما يتوصل إلى معرفة الله تعالى ومعرفة رسله عليهم الصلاة والسلام حتى صح لنا أن نستدل بالنقل عنهم على حدوث ذلك القسم المقدور إذ لا يصلح للألوهية قطعا بدليل برهان الوحدانية والاجماع على حدوث كل ماسوى الإله الحق تبارك وتعالى ، فقد استبان لك أن لامثل له جلّ وعزّ أصلا لأن التباين فى

اللوازم دليل على التباين فى الملزومات وبالله تعالى التوفيق

﴿ص﴾ وَكَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى أَنْ لَا يَكُونَ قَائِمًا بِنَفْسِهِ بِأَنْ يَكُونَ صِفَةً يَقُومُ بِمَحَلٍّ أَوْ يَحْتَاجُ إِلَى مُخَصِّصٍ

﴿ش﴾ قد عرفت فيما سبق معنى قيامه تعالى بنفسه وأنه عبارة عن استغنائه تعالى عن المحل والمخصص أى ليس هو تعالى معنى من المعانى أى الأشياء التى ليست بذوات فيحتاج إلى محل أى ذات يقوم بها وليس جلّ وعزّ أيضا بجائز العدم فيحتاج إلى المخصص أى الفاعل الذى يخصص كل جائز ببعض ما جاز عليه بل هو جلّ وعزّ واجب القدم والبقاء لا تقبل ذاته العلية ولا صفاته الرفيعة العدم أصلا ، فهو المنفرد بالغنى المطلق وحده تبارك وتعالى

﴿ص﴾ وَكَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى أَنْ لَا يَكُونَ وَاحِدًا بِأَنْ يَكُونَ مُرَكَّبًا فِى ذَاتِهِ أَوْ يَكُونَ لَهُ مُمَاثِلٌ فِى ذَاتِهِ أَوْ فِى صِفَاتِهِ أَوْ يَكُونَ مَعَهُ فِى الْوُجُودِ مُؤَثِّرٌ فِى فِعْلٍ مِنَ الْأَفْعَالِ

﴿ش﴾ قد عرفت أن أوجه الوحدانية ثلاثة : وحدانية الذات ، ووحدانية الصفات ، ووحدانية الأفعال وكلها واجبة لمولانا جلّ وعزّ وحده ، فوحدانية الذات تنفى التركيب فى ذاته تعالى ووجود ذات أخرى تماثل الذات العلية ، وبالجملة فوحدانية الذات تنفى التعدّد فى حقيقتها متصلا كان أومنفصلا ، ووحدانية الصفات تنفى التعدد فى حقيقة كل واحدة منها متصلا أيضا كان أو منفصلا فعلم مولانا جلّ وعزّ ليس له ثان يماثله لا متصلا

أى قائما بالذات العلية ولا منفصلا أى قائما بذات أخرى بل هو تعالى يعلم المعلومات التى لا نهاية لها بعلم واحد لاعدد له ولا ثانى له أصلا وقس على هذا سائر صفات مولانا جلّ وعزّ ووحدانية الأفعال تنفى أن يكون ثَمّ اختراع لكل ما سوى مولانا جلّ وعزّ فى فعل من الأفعال بل جميع الكائنات حادثة قد عمها العجز الضرورى الدائم عن إيجاد أثر ما ومولانا جلّ وعزّ هو المنفرد باختراعها وحده بلا واسطة وما ينسب منها إلى غيره عزّ وجلّ على وجه يظهر منه التأثير فهو مؤوّل وبالله سبحانه وتعالى التوفيق

﴿ص﴾ وَكَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْعَجْزُ عَنْ مُمْكِنٍ مَّا

﴿ش﴾ قد عرفت أن قدرته تبارك وتعالى واحدة عامة التعلق بجميع الممكنات إذ لو اختصت ببعضها دون بعض لافتقرت إلى مخصص فتكون حادثة وهو محال على مولانا تبارك وتعالى فلو اتصف تعالى بالعجز عن ممكن ما لانتفى العموم الواجب للقدرة بل ويلزم عليه نفى القدرة أصلا لاستحالة اجتماع الضدّين

﴿ص﴾ وَإِيجَادُ شَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِ مَعَ كَرَاهَتِهِ لِوُجُودِهِ أَىْ عَدَمِ إِرَادَتِهِ لَهُ تَعَالَى أَوْ مَعَ الذُّهُولِ أَوِ الْغَفْلَةِ أَوْ بِالتَّعْلِيلِ أَوْ بِالطَّبْعِ

﴿ش﴾ قد عرفت أن حقيقة الإرادة هى القصد إلى تخصيص الجائز ببعض ما يجوز عليه وقد تقرّر أن إرادته تعالى عامة التعلق لجميع الممكنات فيلزم أن يستحيل وقوع شىء منها بغير إرادة منه تعالى لوقوع ذلك الشىء وذلك ينفى إرادته تعالى لضدّ ذلك الواقع وإلا لاجتمع الضدّان وينفى اتصافه تعالى

بالذهول والغفلة لأنهما منافيان للقصد الذى هو معنى الإرادةوينفى أيضاأن تكون الذات العلية علة لوجود شىء من الممكنات أو مؤثرة فيه بالطبع لأنه يلزم عليه قدم ذلك الممكن لوجوب اقتران العلة بمعلولها والطبيعة بمطبوعها وذلك ينافى إرادة وجود ذلك الممكن القديم لأن القصد إلى إيجاد الموجود محال إذ هو من باب تحصيل الحاصل ولهذا لما اعتقدت الملحدة من الفلاسفة أهلكهم الله تعالى أن استناد العالم إليه تعالى إنما هو على طريق استناد المعلول إلى العلة قالوا بقدم العالم ونفوا لعنهم الله جميع الصفات الواجبة لمولانا جلّ وعزّ من القدرة والإرادة وغيرهما وذلك كفر صراح والفرق بين الايجاد على طريق العلة والإيجاد على طريق الطبع .وإن كانا مشتركين فى عدم الاختيار أن الإيجاد بطريق العلة لا يتوقف على وجود شرط ولا انتفاء مانع والإيجاد بطريق الطبع يتوقف على ذلك ولهذا يلزم اقتران العلة بمعلولها كتحرك الأصبع مع الخاتم التى هى فيه مثلا ولا يلزم اقتران الطبيعة بمطبوعها كإحراق النار مع الحطب لأنه قد لا يحترق بالنار لوجود مانع وهو البلل فيه مثلا أو تخلف شرط كعدم مماسة النار له وهذا فى حق الحادث أما البارى جلّ وعزّ فلو كان فعله بالتعليل أو بالطبع لزم قدم الفعل فيهما معا لوجوب قدمه تعالى واقتران الفعل حينئذ بوجوده تعالى أما على التعليل فظاهر وأما على الطبع فلا يصح أن يكون ثم مانع وإلا لزم أن يوجد الفعل أبدا لأن ذلك المانع لايكون إلا قديما والقديم لا ينعدم أبدا ولا يصح تأخير الشرط لما يلزم عليه من التسلسل فلهذا قلنا فيما سبق إنه يلزم على تقدير التعليل أو الطبع فى حقه تعالى قدم المعلول أو المطبوع ، وقد قام البرهان على وجوب الحدوث لكل ماسواه تعالى وعلى وجوب القدم والبقاء له جلّ وعزّ ، فتعين أنه تعالى فاعل بمحض الاختيار وبطل مذهب الفلاسفة والطبائعيين أذلهم

الله تعالى وأخلى منهم الأرض . والحاصل أن أقسام الفاعل بحسب التقدير العقلى ثلاثة : فاعل بالاختيار وهو الذى يتأتى منه الفعل والترك ، وفاعل بالتعليل وهو الذى يتأتى منه الفعل دون الترك ولا يتوقف فعله على وجود شرط ولا انتفاء مانع ، وفاعل بالطبع وهو الذى يتأتى منه الفعل دون الترك ويتوقف فعله على وجود الشرط وانتفاء المانع . وهذه الأقسام الثلاثة كلها موجودة عند الفلاسفة والطبائعيين ولم يوجد منها عند المؤمنين إلا واحد وهو الموجد بالاختيار ثم هو خاص بواحد وهو مولانا جلّ وعزّ إذ لا موجد سواه تبارك وتعالى ومهما جرى لفظ التعليل فى عبارات أهل السنة فليس مرادهم به إلا ثبوت التلازم بين أمر وأمر إما عقلا أو شرعا من غير تأثير العلة فى معلولها ألبتة ، فاعرف ذلك ولا تغترّ بظواهر العبارات فتهلك مع الهالكين ، وإنما فسرنا الكراهة بعدم الإرادة لتحترز بذلك من الكراهة التى هى من أقسام الحكم الشرعى وهى طلب الكف عن الفعل طلبا غير جازم فتلك يصح أن تجتمع مع الإيجاد فيوجد الله تعالى الفعل مع كراهته له أى نهيه عنه كما أضل الله كثيرا من الخلق مع نهيه لهم عن ذلك الضلال ، أما الكراهة بمعنى عدم إرادة الله تعالى الفعل فيستحيل اجتماعها مع الايجاد إذ يستحيل أن يقع فى ملك مولانا جلّ وعزّ مالا يريد وقوعه . فتنبه لهذه النكتة العجيبة فى ذلك التقييد الذى قيدنا به الكراهة فى أصل العقيدة وبالله تعالى التوفيق

﴿ص﴾ وَكَذَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ تَعَالَى الْجَهْلُ وَمَا فِى مَعْنَاهُ بِمَعْلُومٍ مَّا وَالْمَوْتُ وَالصَّمَمُ وَالْعَمَى وَالْبَكَمُ

﴿ش﴾ مراده بما فى معنى الجهل الظنّ والشك والوهم والنسيان والنوم

وكون العلم نظريا ونحو ذلك ، وبالجملة فالمراد به كل ماشارك الجهل فى مضادته للعلم وإنما كان فى معنى الجهل لمنافاتها العلم حسب منافاة الجهل له ، والمراد بالصمم والعمى فى هذا الموضع عدم السمع والبصر أصلا بوجود ماينافيهما أو غيبة موجود ما من الموجودات عن صفتى السمع والبصر لما سبق من وجوب تعلقهما بكل موجود ، والمراد بالبكم عدم الكلام أصلا بوجود آفة تمنع من وجوده وفى معناه السكوت وفى معناه كونه بالحرف والصوت إذ الكلام الذى يكون بالحروف والأصوات ولو بلغ غاية البلاغة والفصاحة وكان كمالا بالنسبة إلى الحوادث الناقصة فهو بالنسبة إلى مقام الألوهية الأعلى نقيصة عظيمة إذ فيه رذيلتان : إحداهما رذيلة العدم الذى يجب للحروف والأصوات سابقا ولاحقا ويستلزم حدوث من اتصف به وأى نقيصة أعظم من نقيصة الحدوث الملازمة ربقة الافتقار على الدوام ، والثانية رذيلة البكم الذى هو لازم للحروف والأصوات لأنه لما استحال اجتماع حرفين فى آن واحد فضلا عن الكلمتين فضلا عن الكلامين تبكم المتكلم بالحرف والصوت واحتبس عن أن يدل على معلومات له فى آن واحد بصفة الكلام المركب من الحروف والأصوات فلو كان كلام مولانا تعالى بالحروف والأصوات لزم زيادة على رذيلة الحدوث اتصافه سبحانه وتعالى عن ذلك بالحبسة التى هى أصل البكم عن الدلالة على معلوماته التى لانهاية لها بصفة الكلام بل يلزم الحبسة عن الدلالة به فى آن واحد على معلومين له فأكثر ، فقد ظهر لك بهذا أن الكلام الذى يكون بالحروف والأصوات وما فى معناه من كلامنا النفسى ملازمان لمعنى البكم فيستحيل اتصاف مولانا جلّ وعزّ بمثلهما وأن الواصف لمولانا جلّ وعزّ بذلك مستندا إلى أن مثل ذلك فى حقنا كمال ينفى عنا رذيلة البكم قد وصفه تعالى بنقيصة عظيمة تعالى عنها علوّا كبيرا ، ونظيره

فى ذلك نظير من عرف بأن نهيق الحمير وأصواتها كمال فى حقها و كذا نباح الكلاب كمال فى حقها فيسأل عن كلام ملك من الملوك لم يسمع قط كلامه فقال هو مثل نهيق الحمير ونباح الكلاب معتقداً أن ذلك الصوت منهما لما كان كمالا يمنع من اتصافهما برذيلة البكم لزم أن اتصاف الملك بمثل هذا كمال فى حقه ينفى عنه رذيلة البكم ومن المعلوم ضرورة أن الواصف للملك بمثل هذا قد استنقصه غاية الاستنقاص ووصفه بأقبح أنواع البكم بالنسبة إلى نوعه الإنسانى وإن لم يكن بكما بالنسبة إلى نوع الحمير ونوع الكلاب ولا شك أن كلامنا وإن بلغ الغاية فى البلاغة والحسن بالنسبة إلى كلام الله أدنى بما لاحصر له من نهيق الحمير ونباح الكلاب بالنسبة إلى أفصح كلام وأعذبه إذ الحوادث كلها لاتفاضل بينها لذواتها بل مايقوم ببعضها من صفة نقص أو كمال يصح أن يقوم بغيرها من سائر ذوات الحوادث ومولانا سبحانه الفاعل بمحض اختياره هو الذى فاوت فيما بينها وخص منها ماشاء بما شاء من صفة نقص أو كمال فإذا كان كمال بعضها نقصا عظيما بالنسبة إلى غيره مما يقبل صفته ويشاركه فى الحدوث فكيف يكون الحال فيمن يصف المولى العظيم الذى لا مثل له ولم يشارك شيئا سواه فى جنس ولا نوع بمثل أوصاف الحوادث الناقصة التى هى كمال لائق بنقصانها وهى أنقص شيء وأرذله بالنسبة إلى جناب المولى الكريم الكبير المتعال ، وقد ورد عن سيدنا موسى عليه الصلاة السلام أنه كان يسد أذنيه بعد رجوعه من المناجاة وسماع كلام الله سبحانه وتعالى مدة لئلا يسمع كلام الناس فيموت من شدة قبحه ووحشته حقيقة بالنسبة إلى كلام الله تعالى العديم المثال ولا يستطيع أن يسمع كلام الخلق حتى تطول به المدة وينسيه الله تعالى ما ذاق من لذة ذلك الاستماع لكلامه تعالى ، وقد نقل ابن عطاء الله رضى الله تعالى عنه عن مكين الدين الأسمر وكان من

الأبدال أنه رأى فى المنام حوراء فكلمته فبقى نحو شهرين أو ثلاثة أشهر لا يستطيع أن يسمع كلاما إلا تقايأ ، فانظر هذا الأمر كيف صار كلام الناس بالنسبة إلى كلام الحور الذى هو من جنس كلامهم أدنى وأقبح من صوت الحمير ونباح الكلاب بالنسبة إلى كلام الناس إذ لا نجد من يتقايأ بسماع صوت الحمير ونباح الكلاب ولو سمعه أثر سماع أفصح كلام وأعذبه فكيف يكون نسبة كلام الخلق إلى كلام الخالق سبحانه وتعالى الذى جلّ عن المثل فى ذاته وصفاته وأفعاله تبارك وتعالى وباقى الكلام واضح

﴿ص﴾ وَأَضْدَادُ الصِّفَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَاضِحَةٌ مِنْ هٰذِهِ

﴿ش﴾ يعنى أنك إذا عرفت كون ضد القدرة العامة العجز عن ممكن ما لزم أن يكون ضد الصفة المعنوية اللازمة للقدرة وهى كونه تعالى قادرا على جميع الممكنات كونه عاجزا عن ممكن ما وهكذا كل صفة معنى فإن ضدها ضد الصفة المعنوية اللازمة لها وبالله التوفيق

﴿ص﴾ وَأَمَّا الْجَائِزُ فِى حَقِّهِ تَعَالَى فَفِعْلُ كُلِّ مُمْكِنٍ أَوْ تَرْكُهُ

﴿ش﴾ لما فرغ من ذكر ما يجب فى حقه تعالى وما يستحيل ، ذكر هنا القسم الثالث وهو ما يجوز فى حقه تعالى ، فذكر أن الجائز فى حقه تعالى هو فعل كل ممكن أو تركه فيدخل فى ذلك الثواب والعقاب وبعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصلاح والأصلح للخلق لا يجب من ذلك شىء على الله تعالى ولا يستحيل ، إذ لو وجب عليه فعل الصلاح والأصلح للخلق كما تقوله المعتزلة لما وقعت محنة دنيا ولا أخرى ولما وقع تكليف بأمر ولا نهى ، وذلك باطل بالمشاهدة وما يقدر من المصالح مع تلك المحن والتكاليف

فالله تعالى قادر على إيصال تلك المصالح بدون مشقة أومحنة تكليف وأيضا فليست تلك المصالح عامة فى جميع الممتحنين والمكلفين للقطع بأن المحنة والتكليف فى حق من حتم عليه بالكفر والعياذ بالله تعالى نقمة عظيمة وتعريض للهلاك الأبدى ، نسأل الله تعالى العافية فى ديننا ودنيانا وحسن الخاتمة بلا محنة ولا مشقة

﴿ص﴾ أَمَّا بُرْهَانُ وُجُودِهِ تَعَالَى فَحُدُوثُ الْعَالَمِ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُحْدِثٌ بَلْ حَدَثَ بِنَفْسِهِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ الْمُتَسَاوِيَيْنِ مُسَاوِيًا لِصَاحِبِهِ رَاجِحًا عَلَيْهِ بِلَا سَبَبٍ وَهُوَ مُحَالٌ وَدَلِيلُ حُدُوثِ الْعَالَمِ مُلَازَمَتُهُ لِلْأَعْرَاضِ الْحَادِثَةِ مِنْ حَرَكَةٍ وَسُكُونٍ وَغَيْرِهِمَا وَمُلَازِمُ الْحَادِثِ حَادِثٌ وَدَلِيلُ حُدُوثِ الْأَعْرَاضِ مُشَاهَدَةُ تَغَيُّرِهَا مِنْ عَدَمٍ إِلَى وُجُودٍ وَمِنْ وُجُودٍ إِلَى عَدَمٍ

﴿ش﴾ لاخفاء أن العالم من السموات والأرضين وما فيهما ومابينهما أجرام ملازمة لأعراض تقوم بها من حركة وسكون وغيرهما ولنقتصر على الحركة والسكون فإن معرفة لزوم الأجرام لهما ضرورية لكل عاقل فنقول لاشك فى وجوب الحدوث لكل واحد من الحركة والسكون إذ لو كان واحدمنهما قديما لما قبل أن ينعدم أبدا أصلا لأن ماثبت قدمه استحال عدمه ولا خفاء أن كل واحد من السكون والحركة قابل للعدم لأنه قد شوهد عدم كل واحد منهما بوجود ضده فى كثير من الأجرام فلزم استواء الأجرام فى ذلك وإذا

ثبت حدوثهما واستحال وجودهما فى الأزل لزم حدوث الأجرام واستحال وجودها فى الأزل قطعا لاستحالة انفكاكها عن الحركة والسكون . وبالجملة فحدوث أحد المتلازمين يستلزم حدوث الآخر ضرورة وإذا استبان بهذا حدوث العالم لزم افتقاره إلى محدث لأنه لو لم يكن له محدث بل حدث بنفسه لزم اجتماع أمرين متنافيين وهما الاستواء والرجحان بلا مرجح لأن وجود كل فرد من أفراد العالم مساو لعدمه وزمان وجوده مساو لغيره من الأزمنة ومقداره المخصوص مساو لسائر المقادير ومكانه الذى اختص به مساو لسائر الأمكنة وجهته المخصوصة مساوية لسائر الجهات وصفته المخصوصة مساوية لسائر الصفات فهذه أنواع كل واحد منها فيه أمران متساويان فلو حدث أحدهما بنفسه بلا محدث لترجح على مقابله مع أنه مساوله إذ قبول كل جرم لهما على حد سواء فقد لزم أن لو وجد شىء من العالم بنفسه بلا موجد لزم اجتماع الاستواء والرجحان المتنافيين وذلك محال فإذا لولا مولانا تعالى الذى خص كل فرد من أفراد العالم بما اختص به لما وجد شىء من العالم ، فسبحان من أفصح بوجوب وجوده وجوب افتقار الكائنات كلها إليه تبارك وتعالى ، فقولى لزم أن يكون أحد الأمرين المتساويين أعنى بهما الوجود والعدم والمقدار المخصوص وغيره ونحو ذلك مما ذكرناه آنفا وباقى الكلام واضح وبالله التوفيق

﴿ص﴾ وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ الْقِدَمِ لَهُ تَعَالَى فَلأَنَّهُ لَوْلَمْ يَكُنْ قَدِيمًا لَكَانَ حَادِثًا فَيَفْتَقِرُ إِلَى مُحْدِثٍ فَيَلْزَمُ الدَّوْرُ أَوِ التَّسَلْسُلُ

﴿ش﴾ يعنى أنه إذا ثبت وجوده تعالى بما سبق من البرهان وهو افتقار

الكائنات كلها إليه سبحانه فإنه يجب له سبحانه القدم وبرهانه أنه لولم يكن تعالى قديما لكان حادثا لوجوب انحصار كل موجود فى القدم والحدوث فمتى انتفى وجود أحدهما تعين الآخر والحدوث على مولانا جل وعز مستحيل لأنه يستلزم أن يكون له محدث لما عرفت فى حدوث العالم ثم محدثه لا بد أن يكون مثله فيكون حادثا فله أيضا محدث ويلزم أيضا فى هذا المحدث ما لزم فى الذى قبله من الافتقار إلى محدث آخر وهكذا فإن انحصر العدد لزم الدور لأن محدث الأول يلزم أن يكون بعض من بعده ممن أحدثه هذا الأول أو أحدثه من استند وجوده إليه مباشرة أو بواسطة واستحالة الدور ظاهرة لأنه يلزم عليه تقدم كل واحد من المحدثين على الآخر أو تأخره عنه وذلك جمع بين متنافيين بل ويلزم عليه أيضا تقدم كل واحد منهما على نفسه وتأخره عنهما بمرتبتين أو بمراتب وذلك تهافت لا يعقل وإن لم ينحصر العدد وكان قبل كل محدث محدث آخر قبله لزم التسلسل وهو أيضا محال لأنه يؤدى إلى فراغ مالا نهاية له وذلك أيضا لا يعقل وإذا استحال الحدوث على مولانا سبحانه وجب له القدم وهو المطلوب

﴿ص﴾ وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ الْبَقَاءِ لَهُ تَعَالَى فَلأَنَّهُ لَوْ أَمْكَنَ أَنْ يَلْحَقَهُ الْعَدَمُ لَانْتَفَى عَنْهُ الْقِدَمُ لِكَوْنِ وُجُودِهِ حِينَئِذٍ يَصِيرُ جَائِزًا لَا وَاجِبًا وَالْجَائِزُ لَا يَكُونُ وُجُودُهُ إِلَّا حَادِثًا ، كَيْفَ وَقَدْ سَبَقَ قَرِيبًا وُجُوبُ قِدَمِهِ تَعَالَى

﴿ش﴾ لا شك أن وجوب القدم مستلزم لوجوب البقاء له فلما قام البرهان

القاطع على وجوب قدمه وجب بقاؤه تبارك وتعالى إذ لو جاز أن يلحقه العدم « تعالى عن ذلك علوا كبيرا » لكان وجوده جائزا لا واجبا لصدق حقيقة الجائز حينئذ على ذاته سبحانه وتعالى لأن الجائز مايصح وجوده وعدمه وهذا التقدير الفاسد يستلزم صحة الوجود والعدم للذات العلية تبارك وتعالى فيكون جائز الوجود وذلك يستلزم حدوثه تعالى عن ذلك سبحانه لما عرفت من استحالة ترجيح الوجود الجائز على العدم مقابله المساوى له فى القبول من غير فاعل مرجح كيف وقد سبق قريبا بالبرهان القاطع وجوب قدمه جل وعلا فإذن يجب بقاؤه كما وجب قدمه

﴿ص﴾ وَأَمَّا بُرهَانُ وُجُوبِ مُخَالَفَته تَعَالَى لِلْحَوادث فَلأَنَّهُ لَوْ مَاثَلَ شَيْئًا مِنْهَا لَكَانَ حَادِثًا مِثْلَهَا وَذٰلِكَ مُحَالٌ لِمَا عَرَفْتَ قَبْلُ مِنْ وُجُوبِ قِدَمِه تَعَالَى وَبَقَائه

﴿ش﴾ لا شك أن كل مثلين لا بد أن يجب لأحدهما ما يجب للآخر ويستحيل عليه مااستحال عليه ويجوز عليه ما جاز عليه وقد عرفت بالبرهان القاطع أن كل ما سوى الله تعالى يجب له الحدوث فلو ماثل تعالى شيئا مما سواه لوجب له جل وعلا من الحدوث « تعالى عن ذلك » ما وجب لذلك الشيء وذلك باطل لما عرفت بالبرهان القاطع من وجوب قدمه تعالى وبقائه سبحانه. وبالجملة لو ماثل تعالى شيئا من الحوادث لوجب القدم لألوهيته والحدوث لفرض مماثلته للحوادث وذلك جمع بين متنافيين ضرورة

﴿ص﴾ وَأَمَّا بُرهَانُ وُجُوبِ قِيَامِهِ تَعَالَى بِنَفْسِهِ فَلأَنَّهُ لَوِ احْتَاجَ تَعَالَى

إِلَى مَحَلٍّ لَكَانَ صِفَةً وَالصِّفَةُ لَا تَتَّصِفُ بِصِفَاتِ الْمَعَانِي وَلَا الْمَعْنَوِيَّةِ وَمَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ يَجِبُ اتِّصَافُهُ بِهِمَا فَلَيْسَ بِصِفَةٍ وَلَوِ احْتَاجَ إِلَى مُخَصِّصٍ لَكَانَ حَادِثًا وَقَدْ قَامَ الْبُرْهَانُ عَلَى وُجُوبِ قِدَمِهِ تَعَالَى وَبَقَائِهِ

﴿ش﴾ تقدم أن قيامه تعالى بنفسه عبارة عن استغنائه جلّ وعلا عن المحل والمخصص . أما برهان وجوب استغنائه تعالى عن المحل أى عن ذات يقوم بها فهو أنه لو احتاج تعالى إلى ذات أخرى يقوم بها لزم أن يكون صفة بتلك الذات إذ لا يقوم بالذات إلا صفاتها ، ومولانا جلّ وعزّ يستحيل أن يكون صفة حتى يحتاج إلى محل يقوم به إذ لو كان صفة لزم أن لا تتصف بصفات المعانى وهى القدرة والإرادة والعلم الخ ولا بالصفات المعنوية وهى كونه تعالى قادرا ومريدا وعالما الخ لأن الصفة لا تتصف بصفة ثبوتية غير نفسية ولا سلبية لأن النفسية والسلبية تتصف بهما الذات والمعانى إذ لو قبلت الصفة صفة أخرى لزم أن لا تعرى عنها أو عن مثلها أو عن ضدّها ويلزم مثل ذلك فى الصفة الأخرى التى قامت بها وهلم جرا إذ القبول نفسى فلا بد أن يتحد بين المتماثلات وهو محال لما يلزم عليه من التسلسل ودخول ما لا نهاية له من الصفات فى الوجود وهو محال فإن الصفة لا تقبل أن تتصف بصفة ثبوتية غير نفسية تقوم بها أعنى صفات المعانى والمعنوية ومولانا جلّ وعزّ قام البرهان القاطع على وجوب اتصافه بصفات المعانى والمعنوية فيلزم أن يكون ذاتا علية موصوفة بالصفات المرتفعة وليس هو فى نفسه سبحانه صفة لغيره تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، وأما برهان وجوب استغنائه تعالى

عن المخصص أى الفاعل فهو أنه لو احتاج إلى الفاعل لكان حادثا وذلك محال لما عرفت بالبرهان القاطع من وجوب قدمه وبقائه سبحانه وتعالى . فتبين بهذين البرهانين وجوب الغنى المطلق لمولانا جلّ وعزّ عن كل ماسواه. وهو معنى قيامه تعالى بنفسه

﴿ص﴾ وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ الْوَحْدَانِيَّةِ لَهُ تَعَالَى فَلِأَنَّهُ لَوْلَمْ يَكُنْ وَاحِدًا لَزِمَ أَنْ لَايُوجَدَ شَيْءٌ مِنَ الْعَالَمِ لِلُزُومِ عَجْزِهِ حِينَئِذٍ

﴿ش﴾ يعنى أنه لو كان له تعالى مماثل فى ألوهيته لزم أن لا يوجد شيء من الحوادث والتالى معلوم البطلان بالضرورة وبيان لزوم ذلك أنه قد تقرر بالبرهان القاطع وجوب عموم قدرته تعالى وإرادته لجيع الممكنات فلو كان ثمّ موجود له القدرة على إيجاد ممكن ما مثل مولانا جلّ وعزّ لزم عند تعلق تينك القدرتين بإيجاد ذلك الممكن أن لا يوجد بهما معا لاستحالة أثر واحد بين مؤثرين لما يلزم عليه من رجوع الأثر الواحد أثرين وذلك لا يعقل فإنه لابد من عجز أحد المؤثرين وذلك مستلزم لعجز الآخر المماثل له فى القدرة على الإيجاد وإذا لزم عجزهما معا فى هذا الممكن لزم عجزهما كذلك فى سائر الممكنات لعدم الفرق بينهما وذلك مستلزم لاستحالة وجود الحوادث كلها والمشاهدة تقتضى بطلان ذلك ضرورة : وإذا استبان وجوب عجزهما معا مع الاتفاق على ممكن واحد كان مع الاختلاف فيه على سبيل التضادّ أولى . فتعين وجوب وحدانية مولانا جلّ وعزّ فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله . وبهذا نعرف أن لا أثر لقدرتنا فى شيء من أفعالنا الاختيارية كحركاتنا وسكناتنا وقيامنا وقعودنا ومشينا ونحوها بل جميع ذلك مخلوق

لمولانا جلّ وعزّ بلا واسطة وقدرتنا أيضا مثل ذلك عرض مخلوق لمولانا جلّ وعزّ تقارن تلك الأفعال الاختيارية وتتعلق بها من غير تأثير لها في شيء من ذلك أصلا وإنما أجرى الله تعالى العادة أن يخلق عند تلك القدرة لا بها ماشاء من الأفعال وجعل الله سبحانه وجود تلك القدرة مقارنة للفعل شرطا فى وجوب التكليف وهذا الاقتران والتعلق لهذه القدرة الحادثة بتلك الأفعال من غير تأثير لها أصلا هو المسمى فى الاصطلاح وفى الشرع بالكسب والاكتساب وبحسبه تضاف الأفعال إلى العباد كقوله تعالى (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) وأما الاختراع والإيجاد فهو من خواص مولانا جلّ وعزّ لا يشاركه فيه شيء سواه تبارك وتعالى ويسمى العبد عند خلق الله تعالى فيه هذه القدرة والمقارنة للفعل مختارا ، وعندما يخلق تعالى فيه الفعل مجردا عن مقارنة تلك القدرة الحادثة مجبورا ومضطرا كالمرتعش مثلا ، وعلامة مقارنة القدرة الحادثة لما يوجد فى محلها تيسره بحسب العادة فعلا أو تركا وعلامة الجبر وعدم تلك القدرة عدم التيسر ، وإدراك الفرق بين هاتين الحالتين ضرورى لكل عاقل كما أن الشرع جاء باثبات الحالتين وتفضل باسقاط التكليف فى الحالة الثانية وهى حالة الجبر دون الأولى قال الله تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) أى إلا ما فى طاقتها بحسب العادة . وأما بحسب العقل ونفس الأمر فليس فى وسعها أى طاقتها اختراع شيء ما . وبهذا تعرف بطلان مذهب الجبرية القائلين باستواء الأفعال كلها وأنه لا قدرة تقارن شيأ منها عموما ولا شك أنهم فى هذه المقالة مبتدعة بله يكذبهم الشرع والعقل وبطلان مذهب القدرية مجوس هذه الأمة القائلين بتأثير تلك القدرة الحادثة فى الأفعال على حسب إرادة العبد ولا شك أنهم مبتدعة أشركوا مع الله تعالى غيره ، فتحقق مذهب أهل السنة بين هذين المذهبين الفاسدين . فهو قدخرج من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا

للشاربين ، بين قوم أفرطوا وهم الجبرية ، وبين قوم فرطوا وهم القدرية وكما أن هذه القدرة الحادثة لا أثر لهـا أصلا فى فعل من الأفعال كـذلك لا أثر للنار فى شىء من الإحراق أو الطبخ أو التسخين أو غير ذلك لا بطبعها ولا بقوة وضعت فيها . بل الله تعالى أجرى العادة اختيارا منـه جلّ وعز بإيجاد تلك الأمور عندها لا بها ، وقس على هذا ما يوجد من القطع عند السكين والألم عند الجوع والشبع عند الطعام والرى والنبات عنـد الماء والضوء عند الشمس والسراج ونحوهما والظل عند الجـدار والشجرة ونحوهما وبرد الماء السخن عند صب الماء البارد فيه وبالعكس ونحو ذلك مما لا ينحصر فاقطع فى ذلك كله بأنه مخلوق لله تعالى بلا واسطة ألبتة وأنه لا تأثير فيه أصلا لتلك الأشياء التى جرت العادة بوجودها معها . وبالجملة فلتعلم أن الـكائنات كلهـا يستحيل منها الاختراع لأثر ما . بل جميعها مخلوق لمولانا جلّ وعزّ ومفتقر إليه أشد الافتقار ابتداء ودواما بلا واسطة ، فبهذا شهد البرهان العقلى ودلّ عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح قبل ظهور البدع . ولا تصغ بأذنيك لمـا ينقله بعض من أولع بنقل الغث والسمين عن مذهب بعض أهل السنة ممـا يخالف ما ذكرناه لك فشدّ يدك على ما ذكرناه فإنه الحق الذى لا شـك فيه ولا يصح غيره واقطع تشوفك إلى سماع الباطل تعش سعيدا وتمت إن شاء الله تعـالى طيبا رشيدا والله المستعان

﴿ص﴾ وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ اتِّصَافِهِ تَعَالَى بِالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ فَلِأَنَّهُ لَوِ انْتَفَى شَىْءٌ مِنْهَا لَمَـا وُجِدَ شَىْءٌ مِنَ الْحَوَادِثِ

﴿ش﴾ قد تقدم لك أن تأثير القدرة الأزلية موقوف على إرادته تعالى

ذلك الأثر وإرادته تعالى ذلك الأثر موقوفة على العلم به والاتصاف بالقدرة والإرادة والعلم موقوف على الاتصاف بالحياة إذ هى شرط فيها ووجود المشروط بدون شرطه مستحيل فإذاً وجود حادث أىّ حادث كان موقوف على اتصاف محدثه بهذه الصفات الأربع فلو انتفى شىء منها لما وجدشىءمن الحوادث للزوم عجزه حينئذ. وبهذا تبين وجوب وجود اتصافه تعالى بهذه الصفات فى الأزل إذ لو كانت حادثة لزم توقف إحداثها على اتصافه تعالى بأمثالها قبلها ثم ينقل الكلام إلى أمثالها ويلزم التسلسل وهو محال فيكون وجود تلك الصفات على هذا التقدير محالا وذلك مؤدّ إلى المحذور المذكور وهو أن لا يوجد شىء من الحوادث. وبهذا تعرف أيضا وجوب عموم التعلق للمتعلق منها كالعلم والقدرة والإرادة إذ لو اختصت ببعض المتعلقات دون بعض لزم الافتقار إلى المخصص فتكون حادثة ولا يمكن أن يكون المحدث لها غير الموصوف بها لما عرفت من وجوب الوحدانية له تعالى وانفراده بالاختراع وإحداثه تعالى لها فرع اتصافه بأمثالها قبلها ثم ينقل الكلام إلى تلك الأمثال ويجىء ماقد سبق فقد بان لك بهذا أن البرهان الذى ذكرناه فى أصل العقيدة يؤخذمنه ثلاثةأمور: وجود هذه الصفات، ووجوب القدم والبقاء لها، ووجوب عموم التعلق للمتعلق منها. وقدأشار فى أصل العقيدة إلى أن البرهان الذى ذكره هو لهذه المطالب الثلاثة. أما الوجودوالوجوب فأشار إليهما بقوله ووجوب اتصافه تعالى بالقدرة والإرادة إذ الوجوب لهذه الصفات يستلزم وجودها، وأشار إلى المطلب الثالث وهوعموم التعلق للمتعلق منها بالألف واللام التى أدخلهاعلى صفة القدرة ومابعدها من الصفات فإنها للعهد والمعهود به الصفات التى فسر تعلقها فيما سبق وبالله التوفيق

(ص) وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ السَّمْعِ لَهُ تَعَالَى وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ فَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ. وَأَيْضًا لَوْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَا لَزِمَ أَنْ يَتَّصِفَ بِأَضْدَادِهَا وَهِيَ نَقَائِصُ، وَالنَّقْصُ عَلَيْهِ تَعَالَى مُحَالٌ

(ش) هذه الثلاثة لما لم تتوقف على معرفتها دلالة المعجزة على صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام صح أن يستند فى معرفة وجوب اتصافه تعالى بها إلى قول الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام، والدليل الشرعى فيها أقوى من الدليل العقلى، ولهذا بدأنا به فى أصل العقيدة، وقولنا فيها فى الدليل الثانى العقلى والنقص على الله تعالى محال. يعنى لأنه يستلزم أن يحتاج حينئذ إلى من يكمله بأن يدفع عنه ذلك النقص ويخلق له الكمال وذلك يستلزم حدوثه وافتقاره إلى إله آخر. كيف وقد تقرر بالدليل وجوب الوحدانية له تعالى، وأيضا لو اتصف تعالى بتلك النقائص لزم أن يكون بعض مخلوقاته أكمل منه « تعالى الله عن ذلك » لسلامة كثير من المخلوقات من تلك النقائص والمخلوق يستحيل أن يكون أشرف من خالقه، وهذا الدليل العقلى وإن كان لا يسلم من الاعتراض فذكره على سبيل التبعية والتقوية لما هو مستقل بنفسه ولا يرد عليه شىء وهو الدليل النقلى حسن، وقد لوحنا إلى ذلك بتأخيره فى أصل العقيدة وبالله التوفيق

(ص) وَأَمَّا بُرْهَانُ كَوْنِ فِعْلِ الْمُمْكِنَاتِ أَوْ تَرْكِهَا جَائِزًا فِى حَقِّهِ تَعَالَى فَلِأَنَّهُ لَوْ وَجَبَ عَلَيْهِ تَعَالَى شَىْءٌ مِنْهَا عَقْلًا أَوِ اسْتَحَالَ عَقْلًا

لَانْقَلَبَ الْمُمْكِنُ وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحِيلًا وَذٰلِكَ لَا يَعْقَلُ

﴿ش﴾ لا شك أن الممكن فى اصطلاح المتكلمين مرادف للجائز فيكون معناه هو الذى يصح فى العقل وجوده وعدمه فاذاً لو وجب وجوده عقلا أو استحال عقلا لزم قلب الحقائق وذلك لا يعقل . وأيضا فالمعتزلة إنما يوجبون من الممكنات على الله تعالى فعل الصلاح والأصلح للخلق والمشاهدة والشرع يقضيان بفساد قولهم فى ذلك كما أشرنا إليه فيما سبق عند شرح قولنا فى أصل العقيدة وأما الجائز فى حقه تعالى فلو وجب فعل الصلاح والأصلح على الله تعالى كما تقوله المعتزلة هداهم سبحانه وتعالى إلى الصواب فى عقائدهم ولما تركهم فى عماهم يترددون وهو سهم فى هذا الفصل ظاهر لكل عاقل فلا نطيل به وبالله التوفيق

﴿ص﴾ وَأَمَّا الرُّسُلُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَيَجِبُ فِى حَقِّهِمُ الصِّدْقُ وَالْأَمَانَةُ وَتَبْلِيغُ مَا أُمِرُوا بِتَبْلِيغِهِ لِلْخَلْقِ وَيَسْتَحِيلُ فِى حَقِّهِمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَضْدَادُ هٰذِهِ الصِّفَاتِ وَهِىَ الْكَذِبُ وَالْخِيَانَةُ بِفِعْلِ شَىْءٍ مِمَّا نُهُوا عَنْهُ نَهْىَ تَحْرِيمٍ أَوْ كَرَاهَةٍ أَوْ كِتْمَانُ شَىْءٍ مِمَّا أُمِرُوا بِتَبْلِيغِهِ لِلْخَلْقِ . وَيَجُوزُ فِى حَقِّهِمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا هُوَ مِنَ الْأَعْرَاضِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِى لَا تُؤَدِّى لِنَقْصٍ فِى مَرَاتِبِهِمُ الْعَلِيَّةِ كَالْمَرَضِ وَنَحْوِهِ

﴿ش﴾ اعلم أن الرسول هو إنسان بعثه الله تعالى للخلق ليبلغهم ما أوحى إليه وقد يختص بمن له كتاب أو شريعة أو نسخ لبعض أحكام الشريعة السابقة

وهذا البعث من الجائزات عند أهل السنة وأوجبته المعتزلة على أصلهم الفاسد فى وجوب مراعاة الصلاح والأصلح، وأحالته البراهمة لذلك أيضا ولا خفاء فى هوسهم وكفرهم، والدليل لأهل السنة على أن البعث للرسل جائز لا واجب أن البعث فعل من أفعال الله وقد علمت أنه جلّ وعزّ لا يجب عليه فعل وإن كان صلاحا أو أصلح، ولا يتحتم عليه ترك، وكلامنا فى أصل العقيدة واضح لا يحتاج إلى شرح

﴿ص﴾ أَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ صِدْقِهِمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلِأَنَّهُمْ لَوْلَمْ يَصْدُقُوا لَلَزِمَ الْكَذِبُ فِى خَبَرِهِ تَعَالَى لِتَصْدِيقِهِ تَعَالَى لَهُمْ بِالْمُعْجِزَةِ النَّازِلَةِ مَنْزِلَةَ قَوْلِهِ صَدَقَ عَبْدِى فِى كُلِّ مَا يُبَلِّغُ عَنِّى

. هذا برهان وجوب صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام فى دعواهم الرسالة وفيما يبلغونه بعد ذلك للخلق، وحاصل هذا البرهان أن المعجزة التى خلقها الله تعالى على أيدى الرسل هى أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة تنزل من مولانا جلّ وعزّ منزلة قوله جلّ وعزّ صدق عبدى فى كل ما يبلغ عنى. فلو جاز الكذب على الرسل لجاز الكذب عليه تعالى إذ تصديق الكاذب كذب والكذب على الله تعالى محال. لأن خبره تعالى إنما يكون على وفق علمه والخبر على وفق العلم لا يكون إلا صدقا. فخبره تعالى لا يكون إلا صدقا، وقولنا فى تعريف المعجزة أمر أحسن من قول بعضهم فعل لأن الأمر يتناول الفعل كانفجار الماء مثلا من بين الأصابع وعدم الفعل كعدم إحراق النار مثلا لإبراهيم عليه السلام. واحترز بقيد المقارنة للتحدى عن

كرامات الأولياء والعلامات الإرهاصية التى تتقدم بعثة الأنبياء تأسيسا لها وعن أن يتخذ الكاذب معجزة من مضى حجة لنفسه . واحترز بقيد عدم المعارضة عن السحر والشعوذة . ومعنى التحدى دعوى الخارق دليلا على الدعوى إما بلسان الحال وإما بلسان المقال . وقد ضرب العلماء لدعوى الرسول الرسالة وطلبه المعجزة من الله تعالى دليلا على صدقه مثلا لتصح به دلالتها على صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام . ويعلم ذلك بالضرورة فقالوا مثال ذلك ما إذا قام رجل فى مجلس ملك بمرأى منه ومسمع بحضور جماعة وادعى أنه رسول هذا الملك إليهم فطالبوه بالحجة فقال هى أن يخالف الملك عادته ويقوم عن سريره ويقعد ثلاث مرات مثلا ففعل . فلاشك أن هذا الفعل من الملك على سبيل الإجابة للرسول تصديق له ومفيد للعلم الضرورى بصدقه بلا ارتياب ونازل منزلة قوله صدق هذا الإنسان فى كل ما يبلغ عنى . ولا فرق فى حصول العلم الضرورى بصدق ذلك الرسول بين من شاهد ذلك الفعل من الملك وبين من لم يشاهده إلا أنه بلغه بالتواتر خبر ذلك الفعل . فلا شك فى مطابقة هذا المثال لحال الرسل عليهم الصلاة والسلام فلا يرتاب فى صدقهم عليهم الصلاة والسلام إلا من طبع الله على قلبه والعياذ بالله تعالى ، نسأل الله سبحانه ثبات الإيمان والوفاة على أكمل حالاته بلا محنة دنيا وأخرى

﴿ص﴾ وَأَمَّا بُرْهَانُ وُجُوبِ الْأَمَانَةِ لَهُمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلِأَنَّهُمْ لَوْ خَانُوا بِفِعْلِ مُحَرَّمٍ أَوْ مَكْرُوهٍ لَانْقَلَبَ الْمُحَرَّمُ أَوِ الْمَكْرُوهُ طَاعَةً فِى حَقِّهِمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَمَرَنَا بِالاقْتِدَاءِ

بِهِمْ فِى أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَلَا يَأْمُرُ تَعَالَى بِمُحَرَّمٍ وَلَا مَكْرُوهٍ وَهٰذَا بِعَيْنِهِ هُوَ بُرْهَانُ وُجُوبِ الثَّالِث

﴿ش﴾ لا شك أن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد أمرنا بالاقتداء بهم فى أقوالهم وأفعالهم إلا ماثبت اختصاصهم به عن أممهم قال الله تعالى فى حق نبينا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وقال تعالى (واتبعوه لعلكم تهتدون) وقال عزّ وجلّ (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ۞ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى) إلى غير ذلك مما يطول تتبعه ، وقد علم من دين الصحابة ضرورة اتباعه عليه السلام من غير توقف على نظر أصلا فى جميع أقواله وأفعاله إلا ماقام به دليل على اختصاصه به فقد خلعوا نعالهم لما خلع عليه الصلاة والسلام نعله ونزعوا خواتمهم لما نزع عليه السلام خاتمه وحسر أبو بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما عن ركبتيهما فى قصة جلوسهم على البئر كما فعل النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وكاد يقتل بعضهم بعضا من شدة الازدحام على الحلاق عند مارأوه صلى الله عليه وسلم يحلق رأسه وحلّ من عمرته فى قصة الحديبية ، وكانوا يبحثون البحث العظيم عن هيئة جلوسه ونومه وكيفية أكله وغير ذلك ليقتدوا به وقال لهم عليه وعلى آله الصلاة والسلام لما أرادوا التبتل والانقطاع للعبادة ليلا ونهارا : أما أنا فآكل وأنام وأتزوج النساء ، أوكلامايقرب من هذا ، فمن رغب عن سنتى فليس منى . فانظر كيف ردهم بفعله الذى لامعدل عن الاقتداء به عما قصدوه مع أنه يظهر قبل التأمل أن ماقصدوه هو من أكبر الطاعات

وجهاد النفس ، وقد ثبت أن ابن عمر رضى الله عنهما لما سأله السائل عن صبغه بالصفرة ولبسه النعال السبتية وكونه لا يحرم اذا أهل هلال الحجة وإنما يحرم فى يوم التروية وكونه إنما يلمس الركنين اليمانيين فأجابه بأنه استند فى ذلك كله لفعله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، وقد أدار رضى الله تعالى عنه راحلته فى موضع واعتل لذلك بأنه كذلك رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فعله ، وانظر قول عمر رضى الله تعالى عنه للحجر الأسود لقد علمت أنك حجر لاتضرّ ولاتنفع ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم قبلك ماقبلتك ، وقدثبت عن بعض السلف وأظنه الإمام أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه أنه كان لا يأكل البطيخ فقيل له فى ذلك فقال منعنى من أكله أنه لم يثبت عندى كيف أكله النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم . وبالجملة فالاتباع له صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فى جميع أفعاله وأقواله إلا ما اختص به ، ورؤية الكمال فيها جملة وتفصيلا بلا تردّد ولاتوقف أصلا مما علم من دين السلف ضرورة ، ولاشك أن هذا دليل قطعى إجماعى على عصمته صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم . وفى معناه عصمة سائر الرسل عليهم الصلاة والسلام من جميع المعاصى والمكروهات . وأن أفعالهم عليهم الصلاة والسلام دائرة بين الواجب والمندوب والمباح ، وهذا بحسب النظر إلى الفعل من حيث ذاته . وأما لو نظر إليه بحسب عوارضه ، فالحق أن أفعالهم دائرة بين الوجوب والندب لا غير ، لأن المباح لا يقع منهم عليهم الصلاة والسلام بمقتضى الشهوة ونحوها كما يقع من غيرهم . بل لايقع منهم إلامصاحبا لنية يصير بها قربة . وأقل ذلك أن يقصدوا به التشريع للغير . وذلك من باب التعليم . وناهيك بمنزلة قربة التعليم وعظيم فضلها ، وإذا كان أدنى الأولياء لله يصل إلى رتبة تصير

معها مباحاته كلها طاعات بحسن النيـة فى تناولهـا ، فمـا بالك بخيرة الله تعالى من خلقه وهم أنبياؤه ورسله عليهم الصلاة والسـلام . لاسيما أفضل الخلق وأشرف العالمين جملة وتفصيلا بإجماع من يعتـد بإجماعه سيدنا ومولانا محمـد صـلى الله تعالى عليه وعلى آله وسـلم ولأجل انحصار أفعالهم فى الواجب والمندوب على هذا الذى ذكرناه اقتصرنا فى أصـل العقيدة على مايقتضى الاختصاص بهما وهو الطاعة وزدنا التقييد بقولنا فى حقهم إشارة إلى أن بعض أفعالهم وإن كان يطلق عليها الإباحة بالنظر إلى الفعل فى نفسه وبالنظر إلى مطلق وجوده من عامة المؤمنـين . فهو فى حقهم عليهم الصـلاة والسلام لكمال معرفتهم بالله تعالى وسلامتهم من دواعى النفس والهوى وأمنهم من طوارق الفترات والمـلل يقظة ونوما وتأييـدهم بعصمة الله تعالى فى كل حال لا يقع منهم إلا طاعة يثابون عليها صـلى الله تعالى وسلم على نبينا وعلى جميع إخوانه من النبيين والمرسلين . ولتكـن أيها المؤمن على حذر عظيم ووجل شديد على إيمـانك أن يسلب منك بأن تصغى بأذنك أو عقلك إلى خرائف ينقلها كذبة المؤرخين وتبعهم فى بعضها بعض جهـلة المفسرين فقد سمعت الحق الذى لاغبار عليه فى حقهم عليهم الصلاة والسلام فشدّ يدك عليه وانبذ كل ماسواه والله المستعان (قوله وهذا بعينـه هو برهان وجوب الثالث) مراده بالثالث تبليغهم عليهم الصلاة والسلام ماأمروا بتبليغه ولاشك أنهم لو وقع منهم خلاف ذلك لـكنا مأمورين بأن نقتدى بهم فى ذلك فنكتم نحن أيضا بعض ماأوجب الله تعالى علينا تبليغه من العـلم النافع لمن اضطرّ إليه كيف وهو محرم ملعون فاعله قال الله تعالى (إن الذين يكـتمون ماأنزلنا من البينات والهدى من بعـد مابيناه للناس فى الـكتاب أولئـك يلعنهـم الله ويلعنهم اللاعنون) وكيف يتصوّر وقوع ذلك منهم عليهم الصلاة والسلام

ومولانا جلّ وعزّ يقول لسيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) أى إن لم تبلغ بعض ما أمرت بتبليغه من الرسالة فحكمك حكم من لم يبلغ شيئا منها . فانظر هذا التخويف العظيم لأشرف خلقه وأكملهم معرفة به . وكان خوفه على قدر معرفته ولهذا كان يسمع لصدره عليه الصلاة والسلام أزيز كأزيز المرجل من خوف الله تعالى وقد شهد مولانا جلّ وعزّ لسيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بكمال التبليغ فقال تبارك وتعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) وقال سبحانه وتعالى (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغىّ) وقال الله تعالى (فتولّ عنهم فما أنت بملوم) والآى فى ذلك كثيرة وبالله سبحانه وتعالى التوفيق

﴿ص﴾ وَأَمَّا دَلِيلُ جَوَازِ الْأَعْرَاضِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ فَمُشَاهَدَةُ وُقُوعِهَا بِهِمْ إِمَّا لِتَعْظِيمِ أُجُورِهِمْ أَوْلِلتَّشْرِيعِ أَوْ لِلتَّسَلِّي عَنِ الدُّنْيَا وَالتَّنْبِيهِ لِخِسَّةِ قَدْرِهَا عِنْدَ اللهِ تَعَالَى وَعَدَمِ رِضَاهُ تَعَالَى بِهَا دَارَ جَزَاءٍ لِأَنْبِيَائِهِ بِاعْتِبَارِ أَحْوَالِهِمْ فِيهَا عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

﴿ش﴾ يعنى أن الأعراض البشرية لا يقع منها بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا مالايخل بشىء من مقاماتهم ولا يقدح فى شىء من مراتبهم فالمرض مثلا وإن كان يقع بهم فحده منهم البدن الظاهر . أماقلوبهم باعتبار مافيها من المعارف والأنوار التى لا يعلم قدرها إلا مولانا جل وعز الذى منّ عليهم بها فلا يحل

المرض بقلامة ظفر منها ولا يكدر شيأ من صفوها ولا يوجب لهم ضجرا ولاانحرافا ولاضعفا لقواهم الباطنة أصلا كما هو كذلك موجود فى حق غيرهم عليهم الصلاة والسلام وكذا الجوع والنوم لايستولى على شىء من قلوبهم ولهذا تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم وحال قلوبهم فى توجهها بأنوار المعارف والحضور والترقى فى منازل القرب التى لم يحم أحد ممن سواهم حول أدنى شىء منها وقيامهم بالوظائف التى كلفوا بها فى الحضر والسفر والصحة والمرض أكمل قيام هو على حد سواء فى جميع الأحوال . وفائدة إصابة ظواهرهم عليهم الصلاة والسلام بتلك الأعراض ماأشرنا إليه فى أصل العقيدة من تعظيم أجرهم عليهم الصلاة والسلام وذلك كما فى أمراضهم وجوعهم وإذاية الخلق لهم . ولهذا قال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل) ولايخفى أن مولانا جلّ وعزّ قادر أن يوصل إليهم ذلك الثواب الأعظم بلامشقة تلحقهم عليهم الصلاة والسلام . لكن بعدله جلّ وعلا وعظيم حكمته التى لا تحصرها العقول اختار أن يوصل لهم ذلك الثواب مع تلك الأعراض ، يفعل مايشاء ، لايسئل عما يفعل ، تبارك وتعالى ، وهم يسئلون . ومن فوائد نزول تلك الأعراض بهم عليهم الصلاة والسلام تشريع الأحكام المتعلقة بها للخلق كما عرفنا أحكام السهو فى الصلاة من سهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكيف تؤدى الصلاة فى حال المرض والخوف من فعله عليه الصلاة والسلام لها عند ذلك وعرفنا هيئة أكل الطعام وشرب الشراب من أكله وشربه صلى الله عليه وآله وسلم ، وإلا فهو كان عليه وعلى آله الصلاة والسلام غنيا عن الطعام والشراب إذ هو عليه الصلاة والسلام يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه إلى غير ذلك ، ومن فوائدها أيضا التسلى عن الدنيا أى التصبر ووجود الراحة واللذات لفقدها

والتنبيه لخسة قدرها عند الله سبحانه وتعالى بما يراه العاقل من مقاساة هؤلاء السادات الكرام خيرة الله سبحانه من خلقه لشدائدها وإعراضهم عنها وعن زخرفها الذى غرّ كثيرا من الحمق إعراض العقلاء عن الجيف والنجاسات ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم (الدنيا جيفة قذرة) ولم يأخذوا منها عليهم الصلاة والسلام إلا شبه زاد المسافر المستعجل ولهذا قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها جرعة ماء) فإذا نظر العاقل فى أحوال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام باعتبار زينة الدنيا وزخارفها علم علم يقين أنها لاقدر لها عند الله سبحانه وتعالى فأعرض عنها بقلبه بالكلية إن كان ذا همة علية للحلول فى الفراديس العلى وعظيم التلذذ الذى لا يكيف بزوال الحجاب عنه لرؤية المولى الكريم جلّ جلاله بكرة وعشيا وشدّ إزاره لعبادة مولاه عزّ وجلّ شدّ الكرام وصبر هذه اللحظة اليسيرة من العمر على طاعة ربه ، وما أربح صفقة هذا الموفق إذ بذل شيأ قليلا يسيراً لاقيمة له ليسارته وخسته فأخذ شيأ كثيرا لاقيمة له لكثرته وعظيم رفعته وتزايد نعمه كل لحظة أبد الآبدين فبينما هذا الموفق فى ذل أطماره وخفقان قلبه وسيلان دمعه وعويله فى الأسحار وتوحشه من الخلق طرّا يندب على نفسه بنفسه وقد أحرق كبده خوف فوات رضا المولى الذى لا يمكن منه خلف تطير روحه أحيانا وترفرف لقصد الخروج من شدة الحب وانزعاج حرارة الشوق فيردها محيط قفص البدن ثم يهب عليها نسيم الوصلة فتسكن روحه لذلك بعض سكون . فبينما هو فى مكابدة هذه الأحوال والتنعم بالمحبوب وراء الحجاب إذ هو قد أصبح قريبا بنفس موته متصلا بمحبوبه دون حجاب يتنعم برؤية من ليس كمثله شيء جلّ رب

الأرباب فألقى عليه من خلع الكرامات مايليق بكرمه ومنحه مالا يحيط به عقل ولا يحصيه ديوان من طوائف هباته وجلائل نعمه وأصبح بعد أن كان حقيرا مسكينا لا يعبأ به ملكا من ملوك الجنة يسرح فيها أين شاء ويتنعم فيها كيف شاء منها وتطوف عليه الحور العين والولدان ويرى إثر الموت مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب إنسان . فهذا أيها العاقل هو الملك الذى يحق أن تبذل فيه النفوس والمهج . ثم هى والله ليست بقيمة لشىء منه لولا فضل الله الكريم الوهاب فحدث عن بحر فضله العظيم بما شئت ولا حرج قال

دببت للمجد والساعون قد بلغوا * حدّ النفوس وألقوا دونه الأزرا
وكابدوا المجد حتى ملّ أكثرهم * وعانق المجد من وافى ومن صبرا
لاتحسب المجد تمرا أنت آكله * لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

فسبحان من أكرم قوما وأكمل عقولهم وعلاهم دنيا وأخرى إلى أعلى المنازل ، وحط قوما مع مساواتهم لهم فى الصورة البشرية إلى أرذل شىء من الحضيض السافل ، وملكهم لأخس شىء وهو النفس والشيطان والهوى فاتبعوهم فى غير شىء وعرضوهم دنيا وأخرى لمهالك عظيمة وهول أثر الموت شديد مستطيل نازل ، وحسبوا لعمى بصائرهم وتناهى حماقاتهم وشدة بلائهم وكثرة محنهم أنهم ظفروا بشىء من اللذائذ وهم والله قد خرجوا من الدنيا ولم يظفروا بشىء من لذائذ العاجل والآجل

يقضى على المرء فى أيام محنته * حتى يرى حسنا ماليس بالحسن

إلى المولى الكريم نشكو ما أصابنا من التخلف عن وفاق ذوى الهمم السادة الكرام ، وبقائنا عاجزين مطروحين فى ساقة الأخساء اللئام ، تتجاذب معهم بقلوبنا وجوارحنا شهوات وهمية لا جدوى لها ولا طائل تحتها عند

سبرها بمحك التحقيق التام ، بل هى فى الحقيقة سموم قاتلة وعورات بادية وعذرات منتنة حجب تنتها عن الجهلة النيام ذوى الأوهام ، ثم تشاغلنا بها ياطول حسرتنا ولهفنا وعظيم حمقنا فى مفازة مهلكة يخشى فيها من الانقطاع والهلاك بمجرد التفاتة واحدة عن المقصد والمرام ، فكيف بما نحن فيه من التلفت عن مهيع الاستقامة حتى عدلنا ياويلنا عن سنن الهدى وقصدنا بجهلنا عين مواضع الهلاك بقوة العزم والاهتمام ، اللهم يا منقذ الغرقى بعد أن يئسوا أنقذنا يامولانا من هذا الوحل العظيم الذى نحن فيه بلا محنة يا أرحم الراحمين ياذا الجلال والاكرام ، اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وبك المستغاث وأنت المستعان وعليك التكلان ولاحول ولا قوة إلا بك فاحرسنا يامولانا بعينك التى لا تنام ، واكنفنا بكنفك الذى لا يرام ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الأئمة الأعلام ، ومن تبعهم باحسان على طول الدوام

﴿ص﴾ وَيَجْمَعُ مَعَانِى هٰذِهِ الْعَقَائِدِ كُلِّهَا قَوْلُ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللّٰهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللّٰهِ

﴿ش﴾ لما فرغ من ذكر مايجب على المكلف معرفته من عقائد الايمان فى حق مولانا جلّ وعزّ وفى حق رسله عليهم الصلاة والسلام كمل الفائدة هنا ببيان اندراج جميع ما سبق تحت كلمة التوحيد وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله ليحصل لك العلم بعقائد الايمان تفصيلا وإجمالا ولتعرف بذلك شرف سرّ هذه الكلمة المشرفة وما انطوى تحتها من المحاسن حتى يتشعشع القلب عند ذكرها بأنوار اليقين ، ويتموج فيه أضواء الايمان ، حتى تنبسط على الظاهر وتنتشر إلى عليين ، وينفتق لك كنز هذه الكلمة العظيمة عن

يواقيت فراديس الجنان ، وتعرف قدر ما منحت من النعمة العظمى التى من بها بمحض فضله المولى الكريم الرحمن الرحيم بعد أن كان قد احتوى بيت بدنك على كنز عظيم من كنوز مولانا الموصلة إلى كشف الحجب والتمتع بشريف الرضوان ، وأنت لم تدر يامسكين ما هنالك وعسر عليك الوصول إلى ما فى بطنه من المحاسن الفاخرة التى لا تنال والله لولا فضله سبحانه وتعالى بشىء من الإيمان ، ولا شك أن هذه الكلمة مما يجب على كل مؤمن أن يعتنى بشأنها إذ هى ثمن الجنة والمنقذة من المهالك دنيا وأخرى وقد نص العلماء على أنه لا بد من فهم معناها وإلا لم ينتفع بها صاحبها فى الانقاذ من الخلود فى النار ولهذا ينبغى أن يكون كلامنا فيها على سبيل الاختصار فى سبعة فصول (الأول) فى ضبط هذه الكلمة المشرفة (والثانى) فى إعرابها (والثالث) فى بيان معانيها (والرابع) فى بيان حكمها (والخامس) فى بيان فضلها (والسادس) فى كيفية ذكرها على الوجه الأكمل الذى يذوق به ذاكرها جميع لذات محاسنها كلها أو بعضها على حسب مايفتح الله له عند ذكرها من التخلية والتحلية (السابع) فى بيان الفوائد التى تحصل لذاكرها بالمواظبة عليها على الوجه الأكمل إن شاء الله تبارك وتعالى ولنؤخر بيان الفصول الأربعة وهى الرابع وما بعده إلى ما يناسبها فى أصل العقيدة وهو قولنا فيها (فعلى العاقل أن يكثر من ذكرها الخ)

أما ضبط هذه الكلمة المشرفة فينبغى للذاكر أن لا يطيل مدّ ألف لا جدا : وأن يقطع الهمزة من إله ، إذ كثيرا ما يلحن بعض الناس فيردها ياء وكذا يفصح بالهمزة من إلا ، ويشدّد اللام بعدها إذ كثيرا ما يلحن بعضهم فيرد الهمزة ياء أيضا ، ويخفف اللام ، وأما كلمة الجلالة والتعظيم التى بعد إلا فلايخلو إما أن يقف عليها الذاكر أولا ، فإن وقف عليها تعين السكون وإن

وصلها بشيء آخر كأن يقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له فله فيها وجهان : الرفع وهو الأرجح ، والنصب وهو المرجوح ، وسيأتى وجههما فى فصل الإعراب ، وينبغى أن ينوّن الذاكر اسم سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ويدغم تنوينه فى الراء

وأما إعراب هذه الكلمة المشرفة فقد علمت أنها قد احتوت على صدر وعجز ، فعجزها ظاهر الإعراب إذ هو جملة من مبتدأ وخبر ومضاف إليه ، وأما صدرها فلا فيه نافية للجنس وإله مبنى معها لتضمنه معنى من إذ التقدير لا من إله ولهذا كانت نصا فى العموم كأنه نفى كل إله غير الله عز وجل من مبدإ مايقدر منها إلى ما لانهاية له مما يقدر وقيل بنى الاسم معها للتركيب وذهب الزجاج إلى أن اسمها معرب منصوب بها وإذا فرعنا على المشهور من البناء فوضع الاسم نصب بلا العاملة فيه عمل إن والمجموع من لا إله فى موضع رفع على الابتداء والخبر المقدر هو لهذا المبتدإ ولم تعمل فيه لا عند سيبويه وقال الأخفش : لا هى العاملة فيه . وقال الدمامينى فى تعليقه على المغنى : قد تكلم القاضى محب الدين ناظر الجيش فى شرح التسهيل على إعراب هذه الكلمة الشريفة بكلام أورده بجملته وإن كان فيه طول لاشتماله على فوائد : قال قال أهل العلم إن الاسم المعظم فى هذا التركيب يرفع وهو الكثير ولم يأت فى القرآن العزيز غيره وقد ينصب ، أما إذا رفع فالأقوال فيه للناس على اختلاف إعرابهم خمسة : منها قولان معتبران ، وثلاثة لامعوّل على شيء منها ، فالقولان المعتبران أن يكون رفعه على البدلية ، وأن يكون على الخبرية أما القول بالبدلية فهو المشهور الجارى على ألسنة المعربين وهو رأى ابن مالك فإنه قال لما تكلم على حذف خبر لا العاملة عمل إن وأكثر مايحذفه الحجازيون مع إلا نحو لا إله إلا الله وهذا الكلام منه يدل على أن رفع الاسم

المعظم ليس على الخبرية وحينئذ يتعين أن يكون على البدلية ثم الأقرب أن يكون بدلا من الضمير المستتر فى الخبر المقدر وقد قيل إنه بدل من اسم لا باعتبار محل الابتداء يعنى باعتبار محل الاسم قبل دخول لا وإنما كان القول بالبدل من الضمير المستتر أولى، لأن الإبدال من الأقرب أولى من الأبعد ولأنه لاداعية إلى الإتباع باعتبار المحل مع إمكان الإتباع باعتبار اللفظ . ثم البدل إن كان من الضمير المستكن فى الخبر كان البدل فيه نظير البدل فى نحو ما قام أحد إلا زيد لأن البدل فى المسئلتين باعتبار اللفظ وإن كان من الاسم كان البدل فيه نظير البدل فى نحو لا أحد فيها إلا زيد لأن البدل فى المسئلتين باعتبار المحل وقد استشكل الناس البدل فيما ذكرنا أما فى نحو ما قام أحد إلا زيد فمن وجهين أحدهما أنه بدل بعض وليس ثم ضمير يعود على المبدل منه الثانى أن بينهما مخالفة فإن البدل موجب والمبدل منه منفى وقد أوجب على الأول بأن إلا وما بعدها من تمام الكلام الأول وإلا قرينة مفهمة أن الثانى قد كان يتناوله الأول فمعلوم أنه بعضه فلا يحتاج فيه إلى رابط بخلاف نحو قبضت المال بعضه وعن الثانى بأنه بدل من الأول فى عمل العامل وتخالفهما بالنفى والإيجاب لا يمنع البدلية لأن مذهب البدل أن يجعل الأول كأنه لم يذكر والثانى فى موضعه ، وقد قال ابن الضائع إذا قلنا ما قام أحد إلا زيد فإلا زيد هو البدل وهو الذى يقع فى موضعه أحد فليس زيد وحده بدلا من أحد قال وإنما إلا زيد هو الأحد الذى نفيت عنه القيام فإلا زيد بيان للأحد الذى عنيت ثم قال بعد ذلك فعلى هذا البدل فى الاستثناء أشبه ببدل الشىء من الشىء من بدل البعض من الكل، وقال فى موضع آخر لو قيل إن البدل فى الاستثناء قسم على حدته ليس من تلك الابدال التى تبينت فى غير الاستثناء لكان وجها وهو الحق انتهى وأما فى نحو لا أحد فيها إلا

زيد فوجه الإشكال فيه أن زيداً بدل من أحد وأنت لا يمكنك أن تحله محله ، وقد أجاب الشلوبين عن ذلك بأن هذا الكلام إنما هو على توهم ما فيها أحد إلا زيد إذ المعنى واحد وهذا يمكن فيه الحلول بأن تقول ما فيها إلا زيد انتهى وهو كلام حسن ، قال الدماميني وعلى قول الشلوبين فتكون كلمة الحق على معنى لا يستحق العبادة أحد إلا الله سبحانه وتعالى ؛ وهذا يمكن فيه إحلال المبدل محل المبدل منه بأن تقول لا يستحق العبادة إلا الله اه قال ناظر الجيش ، وأما القول بالخبرية فى الاسم المعظم فقدقال به جماعة ويظهر لى أنه أرجح من القول بالبدلية وقد ضعف القول بالخبرية ثلاثة أمور ، وهى أنه يلزم من القول بذلك كون خبر لامعرفة ولا تعمل فى المعارف وأن الاسم المعظم مستثنى والمستثنى لا يصح أن يكون عين المستثنى منه لأنه لم يذكر إلا ليبين به ماقصد بالمستثنى منه وأن اسم لاعامّ والاسم المعظم خاص والخاص لايكون خبرا عن العام لا يقال الحيوان إنسان ، والجواب عن هذه الأمور : أما الأول فهو أنك قد عرفت مذهب سيبويه أن حال تركيب الاسم المعظم مع لا لاعمل لها فى الخبر وأنه حينئذ مرفوع بما كان مرفوعا به قبل دخول لا وقد علل ذلك بأن شبهها بأن ضعف حين ركبت وصارت كجزء كلمة وجزء الكلمة لايعمل شيئا ومقتضى هذا أن يبطل عملها فى الاسم أيضا لكن أبقى عملها فى أقرب المعمولين وجعلت هى مع معمولها بمنزلة المبتدإ والخبر بعدهما على ما كان عليه من التجرّد وإن كان كذلك لم يثبت عمل لا فى المعرفة ، وأما الثانى فلانسلم أن اسم لا هو المستثنى منه وذلك أن الاسم المعظم إذا كان خبرا كان الاستثناء مفرغا والمفرغ هو الذى لم يكن المستثنى منه فيه مذكور ، نعم الاستثناء فيه إنما هو من شىء مقدر لصحة المعنى ولا اعتداد بذلك المقدر لفظا ولا خلاف يعلم

فى نحو مازيد إلا قائم أن قائم خبر عن زيد ولا شك أن زيد فاعل فى قوله ماقام إلا زيد مع أنه مستثنى من مقدر فى المعنى إذ التقدير ماقام أحد إلازيد فعلى هـذا لامنافاة بين كون الاسم المعظم خبرا عن اسم قبله وبين كونه مستثنى من مقدر إذ جعله خبرا منظور فيه إلى جانب اللفظ وجعله مستثنى منظور فيه إلى جانب المعنى ، وأما الثالث فهو أن يقال قولك إن الخاص لا يكون خبرا عن العام مسلم لكن فى لاإله إلا الله لم يخبر بخاص عن عام لأن العموم منفى والكلام إنما سيق لنفى العموم وتخصيص الخبر المذكور بواحد من أفراد مادل عليه اللفظ العام ، وأما الأقوال الثلاثة الأخيرة التى لامعوّل عليها فأحدها أن إلا ليست أداة استثناء وإنما هى بمعنى غير وهى مع الاسم المعظم صفة لاسم لاباعتبار المحل ذكر ذلك الشيخ عبد القاهر الجرجانى عن بعضهم ، فالتقدير لاإله غير الله تبارك وتعالى فى الوجود ولا شك أن القول بأن إلا فى هذا التركيب بمعنى غير ليس له مانع يمنعه من جهة الصناعة النحوية وإنما يمتنع من جهة المعنى وذلك لأن المقصود من هذا الكلام أمران نفى الألوهية عن غير الله تبارك وتعالى وإثبات الألوهية لله تبارك وتعالى ولا يفيده التركيب حينئذ فإن قيل يستفاد ذلك بالمفهوم قلنا أين دلالة المفهوم من دلالة المنطوق ثم هـذا المفهوم إن كان مفهوم لقب فلا عبرة به إذ لم يقل به إلا الدقاق ، قلت : وقد قال به بعض الحنابلة أيضا وإن كان مفهوم صفة فقد عرفت فى أصول الفقه أنه غير مجمع على ثبوته فقد تبين ضعف هذاالقول لامحالة . القول الثانى وينسب للزمخشرى أن لاإله فى موضع الخبر وإلا الله فى موضع المبتدإ وقد قرّر ذلك بتقرير للنظر فيه مجال ولا يخفى ضعف هذا القول وأنه يلزم منه أن الخبر يبنى مع لا وهى لايبنى معها إلا المبتدأ ثم لوكان الأمر كذلك لم يجز النصب فى هذا

التركيب وقد جوزه كما سيأتى ، والقول الثالث أن الاسم المعظم مرفوع بإله كما يرفع الاسم الصفة فى قولنا أقائم الزيدان فيكون المرفوع قد أغنى عن الخبر وقد قرر ذلك بأن إلها بمعنى مألوه من أله أى عبد فيكون الاسم المعظم مرفوعا على أنه مفعول أقيم مقام الفاعل فاستغنى به عن الخبر كما فى قولنا مامضروب إلا العمران وضعف هذا القول غير خفى لأن إلها ليس بوصف فلا يستحق عملا ثم لو كان إله عامل الرفع فيما يليه لوجب إعرابه وتنوينه لأنه مطول إذ ذاك ، وقد أجاب بعض الفضلاء عن ذلك بأن بعض النحاة يجيز حذف التنوين فى مثل ذلك وعليه يحمل قوله سبحانه وتعالى (لا غالب لكم اليوم من الناس) (ولا تثريب عليكم) وفى هذا الجواب نظر لأن الذى يجيز حذف التنوين فى مثل ذلك يجيز إثباته أيضا ولا نعلم أن أحدا أجاز التنوين فى لا إله إلا الله ، هذا آخر الكلام على توجيه الرفع ، وأما النصب فقد ذكروا له توجيهين أحدهما أن يكون على الاستثناء من الضمير فى الخبر المقدر . الثانى أن يكون إلا الله صفة لاسم لا ، أما كونه صفة فهو لا يكون إلا إن كانت إلا بمعنى غير وقد عرفت أن الأمر إذا كان كذلك لا يكون الكلام دالا بمنطوقه على ثبوت الألوهية لله تبارك وتعالى والمقصود الأعظم هو ثبوت الألوهية لله تعالى بعد نفيها عن غيره وعلى هذا فيمتنع هذا التوجيه أعنى كون إلا الله صفة لاسم لا ، وأما التوجيه الأول فقالوا فيه مرجوح وكان حقه أن يكون راجحا لأن الكلام غير موجب والمقتضى لعدم أرجحية البدل هنا أن الترجيح فى نحو ماقام القوم إلا زيد إنما كان لحصول المشاكلة حتى لو حصلت المشاكلة فى تركيب استويا فيه نحو ماضربت أحدا إلا زيدا فمن ثم قالوا إذا لم تحصل مشاكلة فى الإتباع كان النصب على الاستثناء أولى . قالوا وفى هذا التركيب يترجح

النصب فى القياس : لكن السماع والأكثر الرفع ، ونقل عن الأبدى أنك إذا قلت لا رجل فى الدار إلا عمراً كان نصب عمراً على الاستثناء أولى وأحسن من رفعه على البدل ، هذا ماذكروه ، والذى يقتضيه النظر أن النصب لايجوز بل ولا البدل . وتقرير ذلك أن يقال إن إلا فى الكلام التام الموجب نحو قام القوم إلا زيداً متمحضة للاستثناء فهى تخرج مابعدها مما أفاده الكلام الذى قبلها وذلك أن هذا الكلام إنما قصد به الإخبار عن القوم بالقيام ثم إن زيداً منهم ولم يكن شاركهم فيما أسند إليهم فوجب إخراجه وكذا حكم إلا فى الكلام التام غير الموجب أيضا نحو ماقام القوم إلا زيداً ومن ثمّ كان نحو هذا التركيب مفيداً للحصر مع أنها للاستثناء أيضاً لأن المذكور بعد إلا لابد أن يكون مخرجا من شىء قبلها فإن كان ماقبلها تاماً لم يحتج إلى تقدير وإلا فيتعين تقدير شىء قبل إلا حتى يحصل الإخراج منه وإنما أحوج لهذا التقدير تصحيح المعنى فتبين من هذا المعنى الذى قلناه أن المقصود فى الكلام الذى ليس بتام إنما هو إثبات الحكم المنفى قبل إلا لما بعدها وأن الاستثناء ليس بمقصود ولهذا اتفق النحاة على أن المذكور بعد إلا فى نحو ماقام إلا زيد معمول للعامل الذى قبلها ولا شك أن المقصود من هذا التركيب الشريف أمران وهما نفى الألوهية عن كل شىء سوى الله وإثباتها لله تعالى كما تقدم وإذا كانت إلا مسوقة لمحض الاستثناء لايتم هذا المطلوب سواء نصبنا أو أبدلنا وذلك أنه لاينصب ولا يبدل إلا إذا كان الكلام الذى قبل إلا تاماً ولايتمّ إلا بتقدير خبر محذوف وحينئذ ليس الحكم بالنفى على مابعد إلا فى الكلام الموجب وبالإثبات فى غير الموجب مجمعاً عليه إذ لايقول بذلك إلا من مذهبه أن الاستثناء من الاثبات نفى ومن النفى إثبات ومن ليس مذهبه ذلك يقول إن مابعد إلا مسكوت عنه فكيف يكون قول لا إله إلا الله

توحيداً ، قلت وفيه نظر لأنه يكون توحيداً بحسب دلالة العرف وبأنه لانزاع في ثبوت الإلهية لمولانا جلّ وعزّ لجميع العقلاء وإنما كفر من كفر بزيادة إله آخر فنفي ماعداه تعالى من الآلهة على هذا هو المحتاج إليه وبه يحصل التوحيد فتأمله ، ثم قال ناظر الجيش بناء منه على ماظهر له من البحث الذي اعترضناه فتعين أن تكون إلا في هذا التركيب مسوقة لقصد إثبات مانفي قبلها لما بعدها ولا يتم ذلك إلا بأن يكون ماقبلها غير تام ولا يكون غير تام إلا بأن لا يقدر قبل الآخير محذوف وإذا لم يقدر خبر قبلها وجب أن يكون مابعدها هو الخبر هذا هو الذي تركن النفوس اليه وقد تقدم تقرير صحة كون الاسم المعظم في هذا التركيب هو الخبر ، قلت كلامه هذا يقتضي أن الخلاف في كون الاستثناء من النفي إثباتاً أم لا لايدخل الاستثناء المفرغ وظاهر كلام الرازي وكثير من الأصوليين دخول ذلك الخلاف فيه ، ولهذا أوردوا على القائل بأن الاستثناء من النفي ليس بإثبات أنه يلزم على هذا أن لايحصل التوحيد بكلمة الشهادة ، وأجيب بما ذكرناه من النظر قبل في بحث ناظر الجيش . هذا آخر مايتعلق بفصل إعراب هذه الكلمة الشريفة على الاختصار وبالله تعالى التوفيق

وأما معنى هذه الكلمة فلا شك أنها محتوية على نفي وإثبات فالمنفي كل فرد من أفراد حقيقة الإله غير مولانا جلّ وعزّ والمثبت من تلك الحقيقة فرد واحد وهو مولانا جلّ وعزّ وأتى بإلا لقصر حقيقة الإله عليه تعالى بمعنى أنه لايمكن أن توجد تلك الحقيقة لغيره تعالى لاعقلا ولا شرعا ، وحقيقة الإله هو الواجب الوجود المستحق للعبادة ولا شك أن هذا المعنى كلي أي يقبل بحسب مجرد إدراك معناه أن يصدق على كثيرين ، لكن البرهان القطعي دلّ على استحالة التعدد فيه وأن معناه خاص بمولانا جلّ وعزّ فقط ،

فالاسم المعظم المذكور بعد حرف الاستثناء ليس هو بمعنى الإله فيكون كلياً بل هو جزئى علم على ذات مولانا جلّ وعزّ لا يقبل معناه التعدد ذهناً ولا خارجا ولو كان معنى الله كمعنى الإله لزم استثناء الشيء من نفسه ولزم أن لايحصل توحيد من هذه الكلمة المشرفة وكذا لو كان معنى الإله جزئياً مثل الاسم الأعظم لزم أيضاً استثناء الشيء من نفسه والتناقض فى الكلام باثبات الشيء ثم نفيه . والحاصل أن المعانى المقدرة عقلا فى هذه الكلمة باعتبار معنى المستثنى منه والمستثنى أربعة : ثلاثة منها باطلة ، والرابع ينقسم قسمين : أحد قسميه باطل ، والآخر هو الذى يصح من الأقسام كلها ، فالثلاثة الباطلة أن يكونا جزئيين أو كليين أو الأول جزئياً والثانى كلياً والرابع عكس الثالث وهو أن يكون الأول كلياً والثانى جزئياً فان كان المراد بالكلى الذى هو الاله مطلق المعبود لم يصح لما يلزم عليه من الكذب لكثرة المعبودات الباطلة وإن كان المراد بالإله المعبود بحق صح فاذاً لايصح من هذه الأقسام كلها إلا أن يكون إله كلياً بمعنى المعبود بحق والاسم المعظم علم للفرد الموجود منه والمعنى على هذا لامستحق للعبودية له موجود أو فى الوجود إلا الفرد الذى هو خالق العالم جلّ وعلا وإن شئت قلت فى معنى الإله هو المستغنى عن كل ماسواه والمفتقر إليه كل ماعداه وهو أظهر من المعنى الأول وأقرب منه وهو أصل له لأنه لا يستحق أن يعبد أى يذل له كل شيء إلا من كان مستغنياً عن كل ماسواه ومفتقراً اليه كل ماعداه فظهر أن العبارة الثانية أحسن من الأولى وبها ينجلى اندراج جميع عقائد الإيمان تحت هذه الكلمة الشريفة ويتسع بها صدر المؤمن لفيضان أنوار المعارف ويكون على ساحل النجاة والأمن من كل خبط وقع فى معنى هذه الكلمة المشرفة ويدخل الضعيف والقوى فى روضة هذه الكلمة المشرفة يمرح فى أزهارها ويتنزه فى سلسبيل أنهارها ويجتنى من ثمار معارفها

ويسمع من تغريد أطيار هدايتها ما كتب له ولهذا اخترنا في أصل العقيدة التفسير بها لهذه الكلمة المشرفة ، قال المقترح في الأسرار العقلية في معنى هذه الكلمة المشرفة مانصه : ولفظ الاستثناء في الحقيقة ليس جاريا على ظاهر ما يفهمه كل قاصر من أنه نفي وإثبات إذ يلزم منه هنا كفر وإيمان وقد قال الفقهاء إن المقرّ بعشرة إلا ثلاثة مقرّ بسبعة لا بعشرة وينفي منها ثلاثة إذ يلزم أن لا يقبل منه ذلك . نعم للسبعة عبارتان سبعة وعشرة إلا ثلاثة لكن صيغة النفي أبلغ في إفادة معنى الوحدانية إذ يلزم منه نفي الكمية المتصلة والمنفصلة اه قلت يعني بالكمية المتصلة التركيب في ذات الإله جلّ وعلا ، وبالكمية المنفصلة وجود إله ثان منفصل مماثل ، وماذكره من المعنى لدفع التناقض في الاستثناء لا يتعين ، إذ قد اختلف علماء الأصول في تقرير المعنى في نحو عشرة إلا ثلاثة فقال الأكثرون المراد بعشرة إنما هو سبعة وإلا ثلاثة قرينة دالة على إرادة السبعة والاستثناء يوضح أن المراد من المتكلم السبعة فنطقه بالعشرة إرادة للجزء باسم الكل وقال القاضي أبو بكر المجموع وهو عشرة إلا ثلاثة بإزاء سبعة كأنه وضع لها اسمان مفرد وهو سبعة ومركب وهو عشرة إلا ثلاثة وهذا هو القول الذي اختاره المقترح في كلمة الوحدانية وقيل المراد بالعشرة في هذا التركيب هو معنى عشرة باعتبار أفرادها كلها أعني الثلاثة والسبعة معا ثم أخرجت الثلاثة بإلا فبقيت سبعة ثم أسند إليها الحكم بعد الإخراج فلم يلزم تناقض في الحكم إذ ثبوته إنما هو للباقي بعد الإخراج قيل وهذا القول هو الصحيح وأدلة ذلك كله مستوفاة في فن الأصول ولا يخفى تقرير هذه الأقوال كلها في كلمة الوحدانية وبالله تعالى التوفيق

﴿ص﴾ إِذْ مَعْنَى الأُلُوهِيَّةِ اسْتِغْنَاءُ الإِلٰهِ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَافْتِقَارُ

كُلِّ مَا عَدَاهُ إِلَيْهِ ، فَمَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ : لَا مُسْتَغْنِيَ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَمُفْتَقِرَ إِلَيْهِ كُلُّ مَا عَدَاهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى

﴿ش﴾ تقدم وجه اختيارنا لتفسير الكلمة المشرفة بهذا المعنى ففسرنا معنى الألوهية على سبيل الإفراد ثم رتبنا عليه معنى التركيب فى الكلمة المشرفة وذلك ظاهر

﴿ص﴾ أَمَّا اسْتِغْنَاؤُهُ جَلَّ وَعَلَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ فَهُوَ يُوجِبُ لَهُ الْوُجُودَ وَالْقِدَمَ وَالْبَقَاءَ وَالْمُخَالَفَةَ لِلْحَوَادِثِ وَالْقِيَامَ بِالنَّفْسِ وَالتَّنَزُّهَ عَنِ النَّقَائِصِ وَيَدْخُلُ فِى ذَٰلِكَ وُجُوبُ السَّمْعِ لَهُ تَعَالَى وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ إِذْ لَوْ لَمْ تَجِبْ لَهُ تَعَالَى هَٰذِهِ الصِّفَاتُ لَكَانَ مُحْتَاجًا إِلَى الْمُحْدِثِ أَوِ الْمَحَلِّ أَوْ مَنْ يَدْفَعُ عَنْهُ النَّقَائِصَ

﴿ش﴾ لما ذكر أن معنى الألوهية التى انفرد بها مولانا جلّ وعزّ تشتمل على معنيين . أحدهما استغناؤه جلّ وعزّ عن كل ماسواه ، والثانى افتقار كل ماسواه إليه جلّ وعلا . أخذ يذكر مايندرج من عقائد الإيمان تحت المعنى الأول وهو الاستغناء فإذا فرغ من ذلك يذكر مايندرج منها تحت المعنى الثانى وهو الافتقار ، وقوله ويدخل فى ذلك وجوب السمع له تعالى والبصر والكلام يعنى يدخل فى وجوب تنزهه تعالى عن النقائص وجوب هذه الصفات الثلاث له تعالى لما عرفت فيما سبق أن الدليل العقلى على إثباتها كون أضدادها

نقائص ومولانا جلّ وعزّ منزه عن النقائص بإجماع العقلاء. وقوله إذ لو لم تجب له تعالى هذه الصفات إلى آخره بين بهذا الكلام وجه استلزام استغنائه تعالى لهذه الصفات وذلك يلزم منه ثبوت الحاجة لو انتفى واحد من تلك الصفات ، أما الوجود والقدم والبقاء والمخالفة للحوادث وأحد جزأى معنى القيام بالنفس وهو الاستغناء عن المخصص فلا يخفى عليك بعد أن وصلت إلى هذا الموضع أن نفى كل واحد من هذه الصفات الخمس يستلزم الحدوث وقد عرفت مما سبق أن كل حادث مفتقر إلى محدث سواه ويتعالى عن ذلك من وجب له الغنى المطلق عن كل ماسواه فقولنا فى أصل العقيدة (لكان محتاجا إلى المحدث) استدلال على وجوب هذه الصفات الخمس له تعالى وقولنا (أو المحل) استدلال على وجوب الجزء الثانى من معنى القيام بالنفس وهو الاستغناء عن المحل ، وقولنا أو من يدفع عنه النقائص استدلال على وجوب التنزه عن النقائص الذى يدخل فيه وجوب السمع له والبصر والكلام

﴿ص﴾ وَيُؤْخَذُ مِنْهُ تَنَزُّهُهُ تَعَالَى عَنِ الْأَغْرَاضِ فِى الْأَفْعَالِ وَالْأَحْكَامِ وَإِلَّا لَزِمَ افْتِقَارُهُ إِلَى مَا يُحَصِّلُ غَرَضَهُ كَيْفَ وَهُوَ جَلَّ وَعَلَا الْغَنِىُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ وَكَذَا يُؤْخَذُ مِنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ تَعَالَى فِعْلُ شَىْءٍ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ وَلَا تَرْكُهُ إِذْ لَوْ وَجَبَ عَلَيْهِ تَعَالَى شَىْءٌ مِنْهَا عَقْلًا أَوِ اسْتَحَالَ عَقْلًا كَالثَّوَابِ مَثَلًا لَكَانَ جَلَّ وَعَزَّ مُفْتَقِرًا إِلَى ذَلِكَ الشَّىْءِ لِيَتَكَمَّلَ بِهِ إِذْ لَا يَجِبُ فِى حَقِّهِ جَلَّ وَعَزَّ إِلَّا مَاهُوَ كَمَالٌ لَهُ كَيْفَ

وَهُوَ الْغَنِىُّ جَلَّ وَعَلَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ

﴿ش﴾ الغرض المنفى عنه تعالى عبارة عن وجود باعث يبعثه تعالى على إيجاد فعل من الأفعال أو على حكم من الأحكام الشرعية من مراعاة مصلحة تعود إليه تعالى أو إلى خلقه ، ولا خفاء أن كلا الوجهين مستحيل على الله عز وجل ، وأما عودها إليه تعالى فلما يلزم عليه من احتياجه تعالى إلى أن يتكمل بمخلوقه ، وأما الى خلقه فكذلك أيضا لما يلزم عليه من دفع النقص عنه تعالى بخلق المصلحة لخلقه تعالى عن ذلك ودفع النقص كمال فيلزم أيضا فى هذا القسم الثانى احتياجه جلّ وعلا عن ذلك إلى مخلوق وهى المصلحة التى توجد لخلقه تعالى كالثواب ونحوه ليتكمل بها ويتعالى عن ذلك كله من وجب له الغنى المطلق تبارك وتعالى فقد استبان أن أفعاله جلّ وعزّ وأحكامه كلها لا علة لها باعثة وإنما هى بمحض الاختيار وما راعى تعالى من مصالح الخلق فبمحض فضله ولا حق لأحد عليه تعالى فأشرنا فى أصل العقيدة الى القسم الأول بقولنا (ويؤخذ منه تنزهه تعالى عن الأغراض) إلى قولنا (عن كل ما سواه) وأشرنا الى القسم الثانى بقولنا (وكذا يؤخذ منه أيضا أنه لا يجب عليه تعالى فعل شىء من الممكنات ولا تركه) الى آخره

﴿ص﴾ وَأَمَّا افْتِقَارُ كُلِّ مَا سِوَاهُ إِلَيْهِ جَلَّ وَعَزَّ فَهُوَ يُوجِبُ لَهُ تَعَالَى الْحَيَاةَ وَعُمُومَ الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِلْمِ إِذْ لَوِ انْتَفَى شَىْءٌ مِنْهَا لَمَا أَمْكَنَ أَنْ يُوجَدَ شَىْءٌ مِنَ الْحَوَادِثِ فَلَا يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ شَىْءٌ كَيْفَ وَهُوَ الَّذِى يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ

﴿ش﴾ هذا شروع منه فى ذكر ما يندرج تحت المعنى الثانى الذى تضمنه معنى الألوهية ولا خفاء أن وجوب الافتقار إليه تعالى يستلزم قدرته تعالى على إيجاد الشيء المفتقر فيه إليه وذلك يستلزم وجوب اتصافه بالقدرة والإرادة والعلم العامة لجميع متعلقاتها لما عرفت فيما سبق من وجوب توقف تأثير القدرة على الإرادة والعلم. ويستلزم أيضا وجوب اتصافه تعالى بالحياة لوجوب توقف وجود تلك الصفات على صفة الحياة

﴿ص﴾ وَيُوجِبُ لَهُ أَيْضًا الْوَحْدَانِيَّةَ إِذْ لَوْ كَانَ مَعَهُ ثَانٍ فِى الْأُلُوهِيَّةِ لَمَا افْتَقَرَ إِلَيْهِ شَىْءٌ لِلُزُومِ عَجْزِهِمَا حِينَئِذٍ كَيْفَ وَهُوَ الَّذِى يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ تَعَالَى

﴿ش﴾ قد تقدم لك فى برهان الوحدانية أن وجود إله ثان له يستلزم عجزهما معا اتفقا أو اختلفا والعاجز لا يوجد شيأ فلا يفتقر إليه شيء

﴿ص﴾ وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَيْضًا حُدُوثُ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ إِذْ لَوْ كَانَ شَىْءٌ مِنْهُ قَدِيمًا لَكَانَ ذٰلِكَ الشَّىْءُ مُسْتَغْنِيًا عَنْهُ تَعَالَى كَيْفَ وَهُوَ جَلَّ وَعَزَّ الَّذِى يَجِبُ أَنْ يَفْتَقِرَ إِلَيْهِ كُلُّ مَا سِوَاهُ

﴿ش﴾ قد عرفت بالبرهان فيما سبق أن ما ثبت قدمه استحال عدمه فلو كان شيء من العالم قديما لكان ذلك الشيء واجب الوجود لا يقبل العدم أصلا سابقا ولا لاحقا وإذا كان لا يقبل العدم لم يفتقر إلى مخصص كيف

وكل ماسواه تعالى مفتقر إليه غاية الافتقار ابتداء ودواما فوجب إذاً الحدوث لكل ماسواه جل وعلا

﴿ص﴾ وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَيْضًا أَنْ لَا تَأْثِيرَ لِشَيْءٍ مِنَ الْكَائِنَاتِ فِى أَثَرٍ مَّا وَإِلَّا لَزِمَ أَنْ يَسْتَغْنِىَ ذَٰلِكَ الْأَثَرُ عَنْ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ كَيْفَ وَهُوَ الَّذِى يَفْتَقِرُ إِلَيْهِ كُلُّ مَاسِوَاهُ عُمُومًا وَعَلَى كُلِّ حَالٍ هٰذَا إِنْ قَدَّرْتَ أَنَّ شَيْئًا مِنَ الْكَائِنَاتِ يُؤَثِّرُ بِطَبْعِهِ وَأَمَّا إِنْ قَدَّرْتَهُ مُؤَثِّرًا بِقُوَّةٍ جَعَلَهَا اللّٰهُ تَعَالَى فِيهِ كَمَا يَزْعُمُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْجَهَلَةِ فَذَٰلِكَ مُحَالٌ أَيْضًا لِأَنَّهُ يَصِيرُ حِينَئِذٍ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ مُفْتَقِرًا فِى إِيجَادِ بَعْضِ الْأَفْعَالِ إِلَى وَاسِطَةٍ وَذَٰلِكَ بَاطِلٌ لِمَا عَرَفْتَ قَبْلُ مِنْ وُجُوبِ اسْتِغْنَائِهِ جَلَّ وَعَزَّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ

﴿ش﴾ لا شك أنه لو خرج عن قدرته تعالى ممكن ما : لم يكن ذلك الممكن مفتقرا إليه تعالى بل إنما يفتقر لمن أوجده كيف وكل ماسواه متفقر إليه غاية الافتقار . وبهذا يبطل مذهب القدرية القائلين بتأثير القدرة الحادثة فى الأفعال مباشرة أو تولد أو يبطل مذهب الفلاسفة القائلين بتأثير الأفلاك ويبطل مذهب الطبائعيين القائلين بتأثير الطبائع والأمزجة ونحوها ككون الطعام يشبع والماء يروى وينبت ويطهر وينظف والنار تحرق والثوب يستر العورة ويقى الحر والبرد ونحو ذلك مما لا ينحصر وهم فى اعتقادهم التأثير لتلك الأمور مختلفون . فمنهم من يعتقد أن تلك الأمور تؤثر فى تلك الأشياء

التى تقارنها بطبعها وحقيقتها ، قال ابن دهاق ولا خلاف فى كفر من يعتقد هذا . ومنهم من يعتقد أن تلك الأمور لا تؤثر بطبعها بل بقوة أودعها الله تعالى فيها ولو نزعها منها لم تؤثر ، قال ابن دهاق وقد تبع الفيلسوف على هذا الاعتقاد كثير من عامة المؤمنين ، ولاخلاف فى بدعة من اعتقد هذا ، وقد اختلف فى كفره والمؤمن المحقق الايمان من لم يسندلها تأثيرا ألبتة لابطبعها ولا بقوة وضعت فيها ، وإنما يعتقد أن مولانا جلّ وعلا قد أجرى العادة بمحض اختياره أن يخلق تلك الأشياء عندها لا بها ولا فيها فهذا بفضل الله تعالى ينجو من أهوال الآخرة ، وأكثر ما اغترّ به المبتدعة العوائد التى أجراها جلّ وعلا وظواهر من الكتاب والسنة لم يحيطوا بعلمها . والحاصل أن عمدتهم العظمى التقليد لما لا يصلح تقليده ولا الاقتداء به من عوائد وغيرها وتركوا الأنظار الزكية العقلية المستضيئة بأنوار الكتاب والسنة . ولهذا قيل إن أصول الكفر ستة : الايجاب الذاتى ، والتحسين العقلى ، والتقليد الردىء ، والربط العادى والجهل المركب ، والتمسك فى أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين العقلية والقواطع الشرعية للجهل بأدلة العقول وعدم الارتباط بأساليب العرب وما تقرّر فى فنّ العربية والبيان من ضوابط وأصول ، فالإيجاد الذاتى هو أصل كفر الفلاسفة حيث جعلوا الذات العلية فاعلة بمقتضى الإيجاب الذاتى أى هى علة للممكن المستند إليها من غير اختيار فقالوا لأجل ذلك بنفى القدرة والإرادة وسائر الصفات « تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا» وقالوا لأجل ذلك بقدم العالم وألغوا البرهان القطعى الدالّ على حدوثه ولا خفاء ، أنك اذا حققت بما سبق من وجوب الحدوث للعالم ووجوب القدم والبقاء لمولانا جلّ وعزّ عرفت قطعا أن صدور العالم عنه تعالى إنما هو بمحض الاختيار لا بالإيجاد والتعليل وإلا كان العالم قديما أو فاعله حادثا

لوجوب مقارنة المعلول لعلته وكلا الأمرين مستحيل قطعا ، والتحسين العقلى هو أصل كفر البراهمة من الفلاسفة حتى نفوا النبوات . وأصل ضلالة المعتزلة حتى أوجبوا على الله تعالى مراعاة الصلاح والأصلح لخلقه . وعللوا أفعاله وأحكامه بالأغراض وجعلوا العقل يتوصل وحده دون شرع إلى أحكام الله تعالى الشرعية إلى غير ذلك من الضلالات ، والتقليد الردىء هو أصل كفر عبدة الأوثان وغيرهم حتى قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ولهذا قال المحققون لا يكفى التقليد فى عقائد الإيمان . قال بعض المشايخ لافرق بين مقلد ينقاد وبهيمة تقاد ، والربط العادى هو أصل كفر الطبائعيين ومن تبعهم من جهلة المؤمنين فرأوا ارتباط الشبع بالأكل والرى بالماء وستر العورة بالثوب والضوء بالشمس ونحو ذلك مما لا ينحصر ففهموا من جهلهم أن تلك الأشياء هى المؤثرة فيما ارتبط وجوده معها إما بطبعها أو بقوة وضعها الله فيها وأهل السنة رضى الله تعالى عنهم نور الله تعالى بصائرهم لم يفتتنوا بشىء من الأكوان وكوشفوا بالحقائق على ما هى عليه فى نفس الأمر وهذه هى المكاشفة التى يخص الله تعالى بها أولياءه حتى ينجيهم من آفات الكفر والبدع فى أصول العقائد ، وأما المكاشفة بغير هذا فهى مما لا يلتفت إليها الموفقون ، وأما الجهل المركب فهو مما ابتلى به كثير فتجدهم يعتقدون الشىء على خلاف ما هو عليه وذلك جهل ثم يجهلون أنهم جاهلون وذلك جهل آخر ولذلك سمى جهلا مركبا كاعتقاد الفلاسفة التأثير للأفلاك واعتقادهم قدمها وهذه جهالة عظيمة ثم هم جاهلون بهذا الجهل منهم (ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون) والتمسك فى أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير بصيرة فى العقل هو أصل ضلالة الحشوية فقالوا بالتشبيه والتجسيم والجهة عملا بظاهر قوله تعالى (على العرش استوى) (أأمنتم من

فى السماء) (لما خلقت بيدى) ونحو ذلك قال تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) اللهم اكتبنا فى زمرة أوليائك الناجين من كل فتنة دنيا وأخرى ياأرحم الراحمين

﴿ص﴾ فَقَدْ بَانَ لَكَ تَضَمُّنُ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ لِلْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِى يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهَا فِى حَقِّ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ وَهِىَ مَا يَجِبُ فِى حَقِّهِ تَعَالَى وَمَا يَسْتَحِيلُ وَمَا يَجُوزُ

﴿ش﴾ لاخفاء فى صدق ماذكر وتتبع كلامه بالاستقراء يشهد له وليس الخبر كالعيان

﴿ص﴾ وَأَمَّا قَوْلُنَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْخُلُ فِيهِ الْإِيمَانُ بِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَاءَ بِتَصْدِيقِ جَمِيعِ ذَلِكَ

﴿ش﴾ لاشك أن تصديق سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فى رسالته بحسب مادلت عليه معجزاته التى لاحصر لها والاقرار بذلك يستلزم التصديق بكل ماجاء به من عند الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ومن جملة ما أتى به ماذكرناهنا وكذا غير ذلك مما لا ينحصر كالبعث لعين هذا البدن لا لمثله، وفتنة القبر وعذابه، والصراط، والميزان، والحوض،

والشفاعة ، ونحو ذلك مما يطول تتبعه وهو مفصل فى الكتاب والسنة وتآليف علماء الشريعة

(ص) وَيُؤْخَذُ مِنْهُ وُجُوبُ صِدْقِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَاسْتِحَالَةُ الْكَذِبِ عَلَيْهِمْ وَإِلَّا لَمْ يَكُونُوا رُسُلًا أُمَنَاءَ لِمَوْلَانَا الْعَالِمِ بِالْخَفِيَّاتِ جَلَّ وَعَزَّ وَاسْتِحَالَةُ فِعْلِ الْمَنْهِيَّاتِ كُلِّهَا لِأَنَّهُمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أُرْسِلُوا لِيُعَلِّمُوا الْخَلْقَ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ وَسُكُوتِهِمْ فَيَلْزَمُ أَنْ لَا يَكُونَ فِى جَمِيعِهَا مُخَالَفَةٌ لِأَمْرِ مَوْلَانَا جَلَّ وَعَزَّ الَّذِى اخْتَارَهُمْ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ وَأَمَّنَهُمْ عَلَى سِرِّ وَحْيِهِ

(ش) لاشك أن إضافة الرسول إلى الله تعالى تقتضى أنه جل وعزّ اختاره للرسالة كما اختار إخوانه المرسلين لذلك وقد علمت أن علمه تعالى محيط بما لا نهاية له وأن الجهل وما فى معناه مستحيل عليه تعالى فلزم أن تصديقه تعالى لهم مطابق لما علمه تعالى منهم من الصدق والأمانة فيستحيل أن يكونوا فى نفس الأمر على خلاف ما علم الله تعالى منهم ، وقد أمرنا بالاقتداء بهم عليهم الصلاة والسلام فى أقوالهم وأفعالهم فلزم أن يكون جميعها على وفق ما يرضاه مولانا جل وعز وهو المطلوب

(ص) وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَيْضًا جَوَازُ الْأَعْرَاضِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَيْهِمُ الَّتِى لَا تُؤَدِّى إِلَى نَقْصٍ فِى مَرَاتِبِهِمُ الْعَلِيَّةِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِذْ ذَاكَ لَا يَقْدَحُ فِى

رِسَالَتِهِمْ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى بَلْ ذَاكَ مِمَّا يَزِيدُ فِيهَا فَقَدِ اتَّضَحَ لَكَ تَضَمُّنُ كَلِمَتَيِ الشَّهَادَةِ مَعَ قِلَّةِ حُرُوفِهَا لِجَمِيعِ مَا يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ مَعْرِفَتُهُ مِنْ عَقَائِدِ الإِيمَانِ فِي حَقِّهِ تَعَالَى وَفِي حَقِّ رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

﴿ش﴾ لا شك أن عجز الكلمة المشرفة إنما أثبت له صلى الله عليه وسلم الرسالة لا الألوهية وفى معناه إثبات الرسالة لإخوانه المرسلين فلا يمتنع فى حقهم عليهم الصلاة والسلام إلا ما يقدح فى رتبة الرسالة ولا خفاء أن تلك الأعراض البشرية من الأمراض ونحوها لا تخل بشيء من مراتب الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بل هى مما يزيد فيها باعتبار تعظيم أجرهم من جهة ما يقارنها من طاعة الصبر وغيره وفيها أيضا أعظم دليل على صدقهم وأنهم مبعوثون من عند الله تعالى وأن تلك الخوارق التى ظهرت على أيديهم هى بمحض ذكر خلق الله تعالى لها تصديقا لهم إذ لو كانت لهم قوة على اختراعها لدفعوا عن أنفسهم ما هو أيسر منها من الأمراض والجوع وألم الحر والبرد ونحو ذلك مما سلم منه كثير ممن لم يتصف بالنبوة وفيها أيضا رفق بضعفاء العقول لئلا يعتقدوا فيهم الإلهية بما يرون لهم صلوات الله وسلامه على جميعهم من الخوارق والخواص التى خصهم الله تعالى بها ولهذا استدل تعالى على النصارى فى قولهم بألوهية عيسى وأمه عليهما الصلاة والسلام بافتقارهما إلى الأعراض البشرية من أكل الطعام ونحوه فقال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) إلى قوله (ما المسيح ابن مريم إلا رسول

قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأ كلان الطعام) فسبحانه ما أعظم لطفه بخلقه جعلنا الله تعالى ممن علم فعمل وعمل فأخلص وأخلص فدام على ذلك إلى الممات ونجا من كل هول وتخلص . وقوله (فقد اتضح لك إلى آخره) كلام حق شاهده معه

﴿ص﴾ وَلَعَلَّهَا لاخْتِصَارِهَا مَعَ اشْتِمَالِهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ جَعَلَهَا الشَّرْعُ تَرْجَمَةً عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الإِسْلَامِ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ أَحَدٍ الإِيمَانَ إِلاَّ بِهَا

﴿ش﴾ لا شك أنه عليه الصلاة والسلام قد خص بجوامع الكلم فتجد تحت كل كلمة من كلماته من الفوائد ما لا ينحصر فاختار لأمته فى ترجمة الإيمان وما يمرحون به فى الجنان حيث شاؤا هذه الكلمة المشرفة السهلة حفظا وذكرا الكثيرة الفوائد علما وحسنا فما تعبوا فيه من تعلم عقائد الإيمان الكثيرة المفصلة جمع لهم ذلك كله فى حرز هذه الكلمة المنيع وتمكنوا من ذكر عقائد الإيمان كلها بذكر واحد خفيف على اللسان ثقيل فى الميزان ذى قدر لايحاط به عند المولى الكريم العميم الإحسان ثم كل عقيدة من عقائد الإيمان لمن عرفها سيف صارم يقطع به ظهر إبليس وأعوانه ويقذف فى القلب نورا ساطعا يكشف عنه ظلمات الأوهام ويغسل منها أدرانه فجعل الشرع ذكر هذه الكلمة الخفيفة المشرفة جامعا لسيوف العقائد كلها محصلة لأنوار المعارف بأجمعها فهو ذكر واحد فى اللفظ وفى الحقيقة هو أذكار كثيرة يقضى العارف بذكره مرة واحدة ما لا يقضيه غيره إلا فى أزمنة متطاولة ، ثم تنبه أيها المؤمن لعظيم رحمة الله تعالى وإنعامه علينا بهذه الكلمة المشرفة التى لايعلم عامة الناس عظيم قدرها إلابعد الموت

فى الآخرة وهو أن المكلف إنما ينجو من الخلود فى النار إذا اتصف فى آخر حياته بعقائد الإيمان التى تتعلق بالله تعالى وبرسله عليهم الصلاة والسلام والغالب عليه فى ذلك الوقت الهائل الضعف عن استحضار جميع عقائد الإيمان مفصلة فعلمه الشرع بمقتضى الفضل العظيم هذه الكلمة السهلة العظيمة القدر حتى يذكر بها من غير مشقة تناله فى ذلك الوقت الضيق الهائل جميع عقائد الإيمان بلسانه أو بقلبه واكتفى منه الشرع فى هذا الوقت الضيق بمجرد ذكرها بجملة إذ طالما أدارها قبل ذلك على لسانه وقلبه مفصلة، ولهذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة) وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة) فالأول فيمن يستطيع النطق والثانى فيمن لا يستطيعه والله تعالى أعلم. وكذا له أن يكتفى أيضا فى جواب الملكين الكريمين فى القبر بمجرد هذه الكلمة المشرفة حيث يمنعه مانع الهيبة والخوف من ذكر عقائد الإيمان لهما مفصلة وقد ورد أنهما يجتزان منه بذلك وكيف لا يجتزآن منه بهذا الجواب العظيم وقد ذكر لهما المؤمن فى هذه الكلمة مع اختصارها جميع عقائد الإيمان على التمام فما أوسع كرم مولانا جل وعز على المؤمن وأغزر نعمه وألطف حكمه، جعلنا الله سبحانه وتعالى ممن عرف قدر نعمه فشكرها، وممن شكرها فقبل منه ذلك الشكر، ووجد عظيم بركتها دنيا وأخرى بجاه سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم

﴿ص﴾ فَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ ذِكْرِهَا مُسْتَحْضِرًا لِمَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ مِنْ عَقَائِدِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَمْتَزِجَ مَعَ مَعْنَاهَا بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ فَإِنَّهُ يرى

لَهَا مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْعَجَائِبِ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ تَعَالَى مَالَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرٍ وَبِاللّٰهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ لَارَبَّ غَيْرُهُ وَلَا مَعْبُودَ سِوَاهُ نَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا وَأَحِبَّتَنَا عِنْدَ الْمَوْتِ نَاطِقِينَ بِكَلِمَةِ الشَّهَادَةِ عَالِمِينَ بِهَا وَصَلَّى اللّٰهُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ عَدَدَ مَا ذَكَرَهُ الذَّاكِرُونَ وَغَفَلَ عَنْ ذِكْرِهِ الْغَافِلُونَ وَرَضِيَ اللّٰهُ تَعَالَى عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّٰهِ أَجْمَعِينَ وَعَنِ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَسَلَامٌ عَلَى جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

﴿ش﴾ قد آن لنا أن نذكر فى شرح هذه الجملة الفصول الأربعة التى كنا وعدنا بذكرها هنا وهى بقية الفصول السبعة المتعلقة بهذه الكلمة المشرفة : أما الفصل الأول من الأربعة ففى بيان حكم هذه الكلمة ، فاعلم أن الناس على ضربين : مؤمن ، وكافر . أما المؤمن بالأصالة فيجب عليه أن يذكرها مرّة فى العمر ينوى فى تلك المرة بذكرها الوجوب وإن ترك ذلك فهو عاص وإيمانه صحيح والله أعلم ، ثم ينبغى له أن يكثر من ذكرها بعد أداء الواجب كما أشرنا إلى ذلك بقولنا فى أصل العقيدة (فعلى العاقل أن يكثر من ذكرها مستحضرا لما احتوت عليه) ويعرف معناها أو لا لينتفع بذكرها دنيا وأخرى وأما الكافر فذكره لهذه الكلمة واجب شرط فى صحة إيمانه القلبى مع القدرة وإن عجز عنها بعد حصول إيمانه القلبى لمفاجأة الموت له ونحو ذلك سقط

عنه الوجوب وكان مؤمنا ، هذا هو المشهور من مذاهب العلماء أهل السنة . وقيل لا يصح الإيمان بدونها مطلقا ولا فرق فى ذلك بين المختار والعاجز ، وقيل يصح الإيمان بدونها مطلقا وإن كان التارك لها اختيارا عاصيا كما فى حق المؤمن بالأصالة إذا نطق بها ولم ينو الوجوب ، ومنشأ هذه الأقوال الثلاثة الخلاف فى هذه الكلمة المشرفة ، هل هى شرط فى صحة الإيمان أو جزء منه أو ليست بشرط فيه ولا جزء منه والأول هو المختار

وأما الفصل الثانى من الأربعة ففى بيان فضلها . فاعلم أنه لو لم يكن فى بيان فضلها إلا كونها علما على الإيمان فى الشرع تعصم الدماء والأموال إلا بحقها وكون إيمان الكافر موقوفا على النطق بها ، لكان كافيا للعقلاء ، كيف وقد ورد فى فضلها أحاديث كثيرة ، فمنها قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (أفضل ماقلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له) رواه مالك فى الموطأ ، زاد الترمذى فى روايته (له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) وروى هو والنسائى أنه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم قال (أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله) وروى النسائى أنه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم قال (قال موسى عليه الصلاة والسلام يارب علمنى ما أذكرك به وأدعوك به فقال ياموسى قل لا إله إلا الله قال موسى عليه الصلاة والسلام يارب كل عبادك يقولون هذا قال قل لا إله إلا الله قال لا إله إلا أنت إنما أريد شيئا تخصنى به قال ياموسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيرى والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة لمالت بهن لا إله إلا الله) وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (يؤتى برجل إلى الميزان ويؤتى بتسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مد البصر فيها خطاياه وذنوبه فتوضع فى كفة الميزان ثم تخرج بطاقة مقدار الأنملة

فيها شهادة أن لاإله إلا الله محمد رسول الله فتوضع فى الكفة الأخرى فترجح بخطاياه وذنوبه) وروى الترمذى أن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم قال (التسبيح نصف الإيمان والحمد لله تملأ الميزان ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه) وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (ماقال أحد لاإله إلا الله مخلصا من قلبه إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش مااجتنبت الكبائر) وقال لأبى طالب (ياعم قل لاإله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله)وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (أمرت أقاتل الناس حتى يقولوا لاإله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله) وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (أتانى آت من ربى فأخبرنى أنه من مات يشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له دخل الجنة فقال له أبو ذرّ وإن زنى وإن سرق قال وإن زنى وإن سرق) وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (من دخل القبر بلا إله إلا الله خلصه الله من النار) وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لاإله إلا الله خالصا مخلصا من قلبه) وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (من مات وهو يعلم أن لاإله إلا الله دخل الجنة) وعن عتبان بن مالك رضى الله عنه قال غدا علىّ رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال (لن يوافى عبد يوم القيامة بقول لاإله إلا الله يبتغى بها وجه الله إلا حرمه الله على النار وعنه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم أنه قال (مفتاح الجنة لاإله إلاالله) وروى أنس (أن لاإله إلا الله ثمن الجنة) وعنه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (من لقن عند الموت لاإله إلا الله دخل الجنة) وعنه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (لقنوا موتاكم لاإله إلا الله فإنها تهدم الذنوب هدما قالوا يارسول الله فإن

قالها فى حياته قال هى أهدم وأهدم) وفى مسند البزار عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (من قال لا إله إلا الله نفعته يوما من دهره أصابه قبل ذلك ماأصابه) وفى الإحياء قال عليه الصلاة والسلام (لو جاء قائل لا إله إلا الله صادقا بقراب الأرض ذنوبا غفر له ذلك) وفيه أيضا وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم كأنى أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤسهم من التراب ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور) وفيه قال أيضا لأبى هريرة رضى الله تعالى عنه (ياأبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فإنها لا توضع فى ميزان لأنها لو وضعت فى ميزان من قالها صادقا ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن كانت لا إله إلا الله أرجح من ذلك) وفيه وقال (من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة) وقال (لتدخلن الجنة كلكم إلا من تأبى وشرد عن الله شرود البعير عن أهله قيل يارسول الله من الذى تأبى قال من لم يقل لا إله إلا الله فأكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها فإنها كلمة التوحيد وهى كلمة الإخلاص وهى كلمة التقوى وهى الكلمة الطيبة وهى دعوة الحق وهى العروة الوثقى وهى ثمن الجنة) وفيه وقال تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) فقيل الإحسان فى الدنيا قول لا إله إلا الله وفى الآخرة الجنة لمن قالها وكذا قوله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وفيه ويروى (أن العبد إذا قال لا إله إلا الله أتت على صحيفته فلا تمر على خطيئة إلا محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها وفى كتاب عبد الغفور عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (إن لله تبارك وتعالى عمودا من نور بين يدى

العرش فإذا قال العبد لا إله إلا الله اهتز ذلك العمود ، فيقول الله تبارك وتعالى له اسكن فيقول كيف أسكن وأنت لم تغفر لقائلها ، فيقول قد غفرت له فيسكن عند ذلك) وفيه عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله أوصني فقال (أوصيك بتقوى الله فإذا عملت سيئة فأتبعها بحسنة تمحها ، قلت يارسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال هي من أفضل الحسنات) وفيه عن كعب (أوحى الله إلى موسى فى التوراة لولا من يقول لا إله إلا الله لسلطت جهنم على أهل الدنيا) وفيه وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم (من قال لا إله إلا الله ثلاث مرات فى يومه كانت له كفارة لكل ذنب أصابه فى ذلك اليوم) وفيه وذكر عن ابن أبي الفضل الجوهرى قال (إذا دخل أهل الجنة الجنة سمعوا أشجارها وأطيارها وأنهارها وجميع ما فيها يقولون لا إله إلا الله ، فيقول بعضهم لبعض كلمة كنا نغفل عنها فى الدنيا . وفيه وحدث أيضا قال : يهتز العرش لثلاث لقول المؤمن لا إله إلا الله ولكلمة الكافر إذا قالها وللغريب إذا مات فى أرض غربة . وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم : من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه ومدّها بالتعظيم غفر له أربعة آلاف ذنب من الكبائر ، قيل فإن لم يكن له هذه الذنوب قال غفر له من ذنوب أبويه وأهله وجيرانه » وذكر عياض فى المدارك عن يونس بن عبد الأعلى أنه أصابه شيء فرأى فى منامه قائلا يقول له اسم الله الأكبر لا إله إلا الله ، فقالها ومسح على ماوجده من الأذى فأصبح معافى : وذكر ابن الفاكهانى أن ملازمة ذكرها عند دخول المنزل ينفى الفقر . وفضل هذه الكلمة كثير لا يمكن استقصاؤه ، ولهذا اختار الأئمة ملازمة هذا الذكر فى كل حال حتى إن منهم من لا يفتر عنه ليلا ولا نهارا ، ومنهم من يذكره بين اليوم والليلة سبعين ألف مرة ، وأهل التسبب والمشتغلون بالخدمة

والصنائع اثنى عشر ألف مرة ، وروى أن من قالها سبعين ألف مرة كانت له فداء من النار . وقد ذكر الشيخ أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي اليمنى الشافعي فى كتابه الإرشاد والتطريز فى فضل ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه العزيز عن الشيخ أبى زيد القرطبي أنه قال : سمعت فى بعض الآثار أن من قال لا إله إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداءه من النار . فعملت على ذلك رجاء بركة الوعد أعمالا ادخرتها لنفسى وعملت منها لأهلى وكان إذ ذاك يبيت معنا شاب كان يقال إنه يكاشف فى بعض الأوقات الجنة والنار وكان فى نفسى منه شيء فاتفق أن استدعانا بعض الإخوان إلى منزله فبينما نحن نتناول الطعام والشاب معنا إذ صاح صيحة منكرة واجتمع فى نفسه وهو يقول ياعم هذه أمى فى النار وهو يصيح بصياح عظيم لا يشك من سمعه أنه عن أمر فلما رأيت ما به قلت فى نفسى اليوم أجرب صدقه فألهمنى الله تعالى السبعين ألفا ولم يطلع على ذلك أحد إلا الله تعالى فقلت فى نفسى الأثر حق والذين رووه لنا صادقون اللهم إن السبعين ألفا فداء هذه المرأة أم هذا الشاب من النار فما استتممت الخاطر فى نفسى إلا أن قال يا عم ها هى أخرجت الحمد لله فحصلت لى فائدتان إيمانى بصدق الأثر وسلامتى من الشاب وعلمى بصدقه انتهى . وإلى التحريض على التكثير من ذكر هذه الكلمة المشرفة ليفوز الذاكر بعظيم فضلها أشرت بقولى فى أصل العقيدة (فعلى العاقل أن يكثر من ذكرها) ولما كان تحقيق هذا الخير العظيم لذاكر هذه الكلمة موقوفا على فهم معناها أولا ، ثم استحضاره عند ذكرها ولو بطريق الإجمال ثانيا ، قيدت فى أصل العقيدة ذكرها بقولى (مستحضرا لمعناها) بعد أن شرحت لك معناها فى أصل العقيدة شرحا لم أر من سمح به على تلك الصفة المذكورة فيها على حسب ما ألهم إليه المولى الكريم جلّ جلاله فاسرح يامن منّ الله تعالى عليه بفضله بحفظ هذه العقيدة المباركة إن شاء

الله تعالى فى رياض الجنة حيث شئت و كيف شئت فقد تمكنت بحفظها من مفتاح الجنة على أكمل وجه فقرّ بذلك عينا واشكر الله تعالى على جميع إفضاله عليك بما يتحسر عليه فى الآخرة كثير ممن لم يوفق لما وفقت نسأله سبحانه أن يجعلنا وإياك فى الدنيا والآخرة من خيار أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(الفصل الثالث من الفصول الأربعة فى بيان كيفية ذكر هذه الكلمة المشرفة على الوجه الأكمل) فاعلم أن ذاكر هذه الكلمة المشرفة على كل حال بقصد القربة يحصل له الثواب لكن الأكمل الذى ترد به على القلب المواهب الإلهية والفتوحات الربانية، وأمطار الرحمة الغيبية اللدنية، التى يقصر عنها الوصف أن يعظم الذاكر ماعظم الله تعالى وأن يحسن أدبه مع ماشرف مولانا جل وعز وقد علمت أن هذه الكلمة من أفضل الأذكار وأشرفها عند الله تعالى، فينبغى للمؤمن أن يعتنى بشأنها فيه فيتوضأ لها ويلبس ثيابا طاهرة ويقصد موضعا طاهرا كما يقصده للصلاة فيه وليتحرّ الانفراد والخلوة عن الخلق مااستطاع ويقصد الأزمنة المشرفة كما بعد الفجر إلى طلوع الشمس وبعد العصر إلى غروبها أو مايتمكن منه من بعض ذلك وبين العشاءين والسحر ثم يستقبل القبلة ويفتتح ورده أولا بالاستغفار ولو مائة مرة ليغسل باطنه من أدران المعاصى ليتهيأ لتحليته بما يردعليه بعد ذلك من أنوار بقية أوراده ثم ليتبع إثر ذلك صلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ولو خمسمائة مرة ليستنير بها باطنه ويتهيأ لحمل مايرد عليه بعد ذلك من سرّ التهليل وليقصد بذلك كله امتثال أمر الله سبحانه وتعالى وطلب رضاه والذى يعينه على إحضار قلبه وقصد القربة فى هذه الأذكار أن يذكر على قلبه أمر مولانا جلّ وعز بكل واحد منها ليستشعر قلبه هيبة الأمر بمعرفة من صدر منه وكيفية ذكر ذلك

على القلب أن يتعوذ أولا بالله عز وجل من الشيطان الرجيم قاصدا التلاوة لقوله تعالى (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) ثم ليتل إثر التعوذ قوله تعالى (وماتقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) فاذا فرغ من تلاوة هذه الآية استشعر القلب على ذلك خطاب المولى الكريم جلّ جلاله وطلبه بفضله من العبد الضعيف الفقير الحقير الاستغفار والتجأ إلى مولاه الرحيم الرحمن العزيز الغفار ، فذاب عند ذلك من شدة الحياء من المولى الكريم واحتقر نفسه إذ لم يرها أهلا لخطاب من أوجد الكائنات كلها وافتقار جميعها إليه وهو الغنى بالإطلاق ذو الفضل العظيم . فعند ذلك يبادر بلسانه وهو يرعد من شدة الهيبة والخجل والتعظيم قائلا لبيك مولاى وسعديك والخير كله فى يديك وهذا عبدك الضعيف الذليل عليك معوله فى طهارة باطنه وظاهره يقول بتوفيقك امتثالا لأمرك مستعينا بك اللهم إنى أستغفرك يامولاى وأتوب إليك من جميع الصغائر والكبائر وهواتف الخواطر أو نحو ذلك من عبارات الاستغفار وليختر منها مايراه قوى التأثير فى باطنه ثم يتمادى حتى يتم ورده من الاستغفار فاذا أتمه حمد الله تعالى ثلاثا أو سبعا أو نحو ذلك مستحضرا قدر النعمة التى وفقه المولى الكريم لبدئها وتمامها حتى غسل من القلب أدرانه وكشف عنه دخان الذنب ورانه يقول فى هيئة ذلك : الحمد لله الذى أنعم علينا بنعمة الإيمان والإسلام وهدانا بسيدنا ومولانا محمد عليه من الله تعالى أفضل الصلاة وأزكى السلام الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ثم ليشرع إثر ذلك فى التعوذ على ماسبق وليتل إثره على قلبه قوله تعالى (إن الله وملائكته يصلون على النبي ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) فعند ذلك يستحضر القلب عظيم فضل سيدنا ومولانا

محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم عند الله تعالى وأنه حاز عنده منزلة لا يمكن أن تلحق ، إذ مولانا جلّ وعزّ على ماهو عليه من الجلال والكمال يخبر أنه يصلى بنفسه على سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وكذلك ملائكته الكرام عليهم الصلاة والسلام على ماهم عليه من الكثرة والشرف يتوسلون إلى الله تعالى بالصلاة على حبيبه ومصطفاه من جميع خلقه محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فيفرح عندذلك العبدالضعيف الفقير إذ تفضل عليه مولاه بأن أدخله بهذا الخطاب الجسيم ، وما احتوى عليه من الأمر العظيم فى روضة التقرب إلى حبيبه وأفضل خلقه عنده ، عليه من مولانا جلّ وعلا أفضل الصلاة وأزكى التسليم ، فحينئذ يبادر بلسانه وهو يبتهج فرحا العظيم فضل مولاه جل وعلا عليه إذ فتح له الباب إلى التوصل منه إلى أعظم الوسائل عنده سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال مجيبا لهذا الأمر الجليل لبيك مولاى وسعديك والخير كله فى يديك وهاهو العبد الفقير الحقير راكن لمنيع جنابك متوسل إليك بأفضل أحبابك صلى الله عليه وآله وسلم يقول بتوفيقك ممتثلا لأمرك ومستعينا بك فى جميع أموره اللهم صل على سيدنا محمد نبيك ورسولك ودليلك صلاة أرقى بهامراقى الاخلاص وأنال بهاغاية الاختصاص وسلم تسليما . عدد ما أحاط به علمك وأحصاه كتابك أو غير ذلك من كيفيات التصليات التى تليق بجلاله ثم يتمادى على ذلك مستحضرا لصورته صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم التى ليس ثمّ فى المخلوقات مثلها فى الجمال مستشعرا عظيم حرمته عند العلى ذى الجلال ذاكرا عظيم شفقته ورأفته بالمؤمنين وشدة اهتباله بهم فى حياته وبعد مماته والسعى فى مراشدهم وإنقاذهم من كل هول دنيا وأخرى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وعلى سائر أنبيائه ورسله أجمعين ليتربى بذلك عظيم محبته فى قلبه ويتشعشع أنوار حسن الاتباع فى ظاهره ولبه فإذا

فرغ من ورده بالصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم حمدالله تعالى أيضا على التوفيق لبدء ذلك وتمامه ليقيد بالشكر هذه النعمة العظمى خشية السلب عليها وأقل ذلك ثلاث أوسبع . ثم ليشرع إثر ذلك فى التعوذ قاصدا التلاوة ثم ليتلو إثره قوله تعالى فاعلم أنه لا إله إلاالله ، ثم ليجب أمر مولانا العزيز بقوله لبيك مولاى وسعديك والخير كله فى يديك وهاهو العبدالفقير الحقير يوحدك بالتهليل منخلعا من كل شرك ومن كل تغيير وتبديل بقوله مخلصا من قلبه ذاكرا لربه لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم إلى آخر دور سبحته من التهليل وليعد التعوذ والتلاوة فى أول كل دور منها وإن اجتزأ بالمرة الأولى فلا بأس ، وليحافظ الذاكر على إحضار قلبه لمعنى التهليل ليفوز بثمراته ويستضىء قلبه بعظيم أنواره وتحصل له الحرية العظمى من رقه لشىء من الكائنات ويتحلى بالرتبة العليا والشرف الأبهى باستناده علما وحالا ظاهرا وباطنا إلى مولاه المنفرد بالملك والتدبير الذى لانافع ولاضار سواه على العموم تبارك وتعالى نعم المولى ونعم النصير لهذا كانت هذه الكلمة المشرفة جامعة بين التحلية والتخلية فيتخلى الذاكر أولامن قلبه ويطرد عنه جميع الخواطر الوهمية وجميع الكائنات التى استبعدته من جاه ومال ونساء وبنين ودينار ودرهم ومدح وذم ونحو ذلك بقوله لا إله إلاالله . أى ليس ثمّ سوى مولانا جل وعز من جميع الكائنات على العموم من هوغنى فى نفسه أويفتقر إليه فى أثرما حتى يستحق أن يعبدأويخاف أو يعول عليه فى أثرما . بل جميعه عاجزا أتمّ العجزعن إيصال أمرما . إلى نفسه أوإلى غيره فوجب طرد جميعها من القلب إذ وجودها كعدمها بلاشك ولاريب وماوجد مع بعض تلك الأمور المخلوقة كالطعام والشراب والمياه والثياب والنساء والبنين والأموال والنيران والسلاح والأسود والحيات والظلمة والجنة والنارمن

المصالح واللذات ومن المفاسد والآلام فليس منها أصلا ولا يعول عليها فى شيء من ذلك ولا غيره فالالتفات إلى شيء منها عمى وظلمة عظيمة وحالة سيئة غير مستقيمة وسفه قوى وخصلة ذميمة وقذر شديد النتن تجب المبالغة فى غسله من البال ليتهيأ القلب للتجلى بالنور الزكى اللامع من معرفة العلى ذى الجلال فلما غسل الذاكر قلبه بذلك النفى القوى العام وصلى على الكونين صلاته على الميت المعدوم أربعا وختم بالسلام حلاه حينئذ بزينة الدخول فى حضرة الملك العلام فقال قول المضطر الأواه اليائس يأسا قطعيا دائما من كل ماسوى مولاه إثر نفى لا إله إلا الله ولما ابتهج قلبه بنور الحقيقة وكان الانتفاء بها موقوفا على القيام برسوم الشريعة وذلك لا يكون إلا بالإدمان على ذكر صاحبها المبلغ لها عن الله تعالى سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم احتاج الذاكر بعد كلمة التوحيد الدالة على الحقيقة أن يشفعها بإثبات رسالة سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ليحفظ نور توحيده بإدخاله فى منيع حرز الشريعة فلهذا يقول الذاكر إثر لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وهكذا ينبغى فى كل ذكر من أذكار الله تعالى أن لا يغفل المؤمن فيه عن ذكر سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم إما بأن يصلى عليه إثره أو يقرّ برسالته مع الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم أو نحو ذلك مما يوجب تعظيمه والتمسك بأذياله إذ هو صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم باب الله الأعظم الذى لا ينال كل خير دنيا وأخرى إلا بالتعلق به فمن غفل عن ذكره والتمسك بشريعته صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم لم ينل مقصده وكان مرميا فى سجن القطيعة محروما من خير الدنيا والآخرة وسيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم هو دليل الخلق إلى الله تعالى فكيف

يصل إلى الله تعالى من غفل عن ذكر دليله وقد قال بعض من طبع الله تعالى على قلبه ممن يتعاطى التصوف وليس هو من أهله مقالة قريبة من الكفر أوهى الكفر بعينه أن الاكثار من ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم حجاب عن الله تعالى وقد سلك بعض الضالين مثل هذه العبارة فقال إذا أفردت التهليل عن إثبات الرسالة كان أبلغ وأسرع فى تأثير معنى التوحيد واحتج لضلاله وتسويل شيطانه بان قال للتهليل معنى ولإثبات الرسالة معنى وإذا اختلفت المعانى على الباطن ضعف التأثير وبعدت الثمرة قال وإنما يحتاج إلى وصل الذكرين عند الدخول فى الاسلام ، قال بعض الأئمة الراسخين رضى الله تعالى عنهم : وهذه المقالة والعياذ بالله تعالى من الفتن التى لا مورد لها غير النار ، ولا عقبى لها سوى دار البوار ، وما ذاك إلا مكر واستدراج إلى رفض الشريعة والانحلال من ربقتها وتعطيل رسومها ولو علم هذا الضال ما تحت قوله محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم من الأسرار التوحيدية، والحكم التهليلية ، لانقشع عنه ذلك العمى فأصاب المرمى اه اللهم أعذنا من الفتن ماظهر منها وما بطن بجاه سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم صلاة وسلاما نصل بهما مع الأحبة بفضل الله تعالى إلى الفردوس الأعلى والتمتع هناك فى جواره تعالى بنفيس تلك المواهب والمنن

(الفصل الرابع من الفصول الأربعة فى بيان الفوائد التى تحصل لذاكر هذه الكلمة المشرفة على الوجه الأكمل مع المواظبة) اعلم أن المواظبة على ذكر الكلمة المشرفة على الوجه الذى ذكرناه أولا يحصل فوائد كثيرة : منها مايرجع إلى محاسن الأخلاق الدينية ، ومنها ما يرجع إلى الكرامات التى هى خوارق العادات . أما الأول: فمنها اتصافه بالزهد ونعنى به خلوّ الباطل من الميل إلى فان ، وفراغ القلب من الثقة بزائل ، وإن كانت اليد مغمورة

بمتاع حلال فعلى سبيل العارية المحضة ، وتصرفه فيه بالاذن الشرعى تصرف
الوكالة الخاصة ينتظر العزل عن ذلك التصرف بالموت أوغيره مع كل نفس
وذلك ينفى عن النفس التعلق بما لا بدّ من زواله ، ومنها التوكل وهو ثقة
القلب بالوكيل الحق بحيث يسكن عن الاضطراب عند تعذر الأسباب ثقة
بسبب الأسباب ولا يقدح فى توكله تلبس ظاهره بالأسباب إذا كان قلبه
فارغا منها بحيث يستوى عنده وجودها وعدمها . ومنها الحياء بتعظيم الله
عزّ وجلّ بدوام ذكره والتزام نهيه وأمره والامساك عن الشكوى به إلى
العجزة والفقراء غيره . ومنها الغنى وهو غنى القلب بسلامته من فتن الأسباب
فلا يعترض على الأحكام بلو ولا بلعل لعلمه بمن صدرت منه جلّ وعزّ المنفرد
بالخلق والتدبير الملك الوهاب ومنها الفقر وهو نفض يد القلب من الدنيا
حرصا وإكثارا لقطعه بأن حاجته ليست عند شىء منها وسكوت اللسان عنها
بالكلية مدحا وذما . ومنها الايثار على نفسه بما لا يذمه الشرع . ومنها الفتوة
وهى التجافى عن مطالبة الخلق بالاحسان إليه ولو أحسن إليهم لعلمه بأن
إحسانه وإساءتهم إليه كل ذلك مخلوق له تعالى والله خلقكم وما تعملون فلم
ير لنفسه إحسانا حتى يطلب عليه جزاء ولم ير لهم إساءة حتى يذمهم عليها اللهم
إلا أن يكون الشرع هو الذى أمر بذمهم أو معاقبتهم فيفعل حينئذ ما أمر
به الشرع ليقوم بوظيفة التعبد فقط وهذه الفتوة هى فوق المسالمة ومنها
الشكر وهو إفراد القلب بالثناء على الله تعالى ورؤية النعم منه فى طى النقم
والفوائد كثيرة ومن أرادها فليجتهد فى أسبابها فيعرفها بالذوق ، وأما
النوع الثانى من الفوائد وهو ما يرجع إلى الكرامات فمنها وضع البركة فى
الطعام ونحوه حتى يكثر القليل ويكفى اليسير وهذا مشاهد لأولياء الله تعالى
كثيرا ومنها تيسير دنانير أودراهم أو كليهما أوغير ذلك مما تدعو إليه الحاجة

وقد كان بعض المشايخ فى أول أمره حرارا فتعذر عليه شغل الحرارة تعذرا شرعيا فكان إذا قضى وظيفة ذكره يرفع رأسه فيجد فى حجره درهما يشترى به قوت ذلك اليوم ونقل عن الشيخ أبى عبد الله التاودى أنه احتاج كسوة لاولاده وزوجته وكان كثير الاولاد فاشترى شقة وذهب بها إلى الخياط وأعطاه طرفها الواحد وأمسك تحته الطرف الآخر فجعل الخياط يجذبها ويفصل منها شيأ بعد شىء حتى صنع أثوابا عدة تشهد العادة بأن ذلك لايكون من شقة واحدة فطال ذلك على الخياط فقال له ياسيدى هذه الشقة ماتتم أبدا فقال له الشيخ خوف الفتنة قد تمت ورمى له بباقيها من تحته ، وكان بعض المشايخ لاينتصب لذكر ولا لصلاة على سجادته فى خلوته إلا ويخلق الله له على سجادته وتحتها دراهم جددا وكان له عائلة وأولاد فكان معشر أولاده إذا رأوه يأخذ فى التوجه للصلاة والذكر يحدقون به يترقبون انفصاله فإذا انفصل التقطوا تلك الدراهم فمنهم المقل ومنهم المكثر وداوموا على ذلك حتى تحدثوا به وشاع الحديث فانقطع ذلك . ومنها أن ينكشف له عن حقيقة مايريد استعماله من الطعام فيعرف حلاله من حرامه ومن متشابهه بأمارات يجدها إما من باطنه أو من ظاهره أو من غيره وكرامات هذا الباب كثيرة لاتحصى إلاأن المؤمن لاينبغى أن يقصدها بشىء من طاعته وإلا دخل عليه الشرك الخفى ومكر به والعياذ بالله إذ هى من جملة مايجب أن يصفى منها قلبه عند ذكر كلمة التوحيد فليقطع التفاته إليها بالكلية وليكن مقصده رضا مولاه الذى لاخاف له منه ولاغنى لمخلوق عنه وكشف الحجاب عن عينى قلبه حتى يتنزه فى ذلك الجلال العديم المثال ويوجهه مولاه بعجائب وأسرار لايمكن أن يعبر عنها المقال ، اللهم افتح لنا فى ذلك وزدنا من فضلك دنيا وأخرى ياأرحم الراحمين بجاه سيد الأولين والآخرين نبينا ومولانا محمد

صلى الله عليه وسلم وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين وعلى جميع الملائكة المقربين . وإلى فضل هذه الكلمة وما يحصل لذاكرها من الفوائد أشرت بقولى فى أصل العقيدة (فإنه يرى لها من الاسرار والعجائب مالا يدخل تحت حصر) وهذا الفصل الرابع هو آخر السبعة الفصول المتعلقة بكلمة التوحيد جعلناها سبعة تفاؤلا ورجاء من المولى الكريم جل وعلا أن يجعلها لنا ولجميع أحبتنا حصنا حصينا وحجابا منيعا من التعذيب بشىء من دركات النار السبع كما أنا ختمنا هذه العقيدة وشرحناها بتحقيق معنى كلمتى الشهادة نرجو به من مولانا جلّ وعلا أن يختم لنا ولجميع أحبتنا وإخواننا فى الدين بأفضل درجات الإيمان ويجمع شملنا وشملهم إثر الموت مع أوليائه المقربين أهل النعيم المقيم والروح والريحان . ولنختم هذا الشرح المبارك إن شاء الله بأدعية مباركة فنقول :

الحمــــد لله الكريم الوهاب ، المعطى النعم الجليلة لمن شاء بمحض فضله لا لسبب من الأسباب ، الفاتح بصائر القلوب بجوده حتى خرقت بنورها حجب الكائنات كلها وظفرت بمنتهى الآراب . والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم معدن الكمالات ، والوسيلة العظمى دنيا وأخرى لنيل المنى والحاجات ، وينبوع الفضائل وأساس جميع الخيرات ، المشرف على كل مخلوق لله تعالى فى الأرض والسموات ، ورضى الله تعالى عن آله وصحبه الذين هم بعد غيبته ولحوقه بالرفيق الأعلى الأنجم الزاهرات ، والذين هم القدوة للخلائق بعده وهم خير الأمة الأئمة الهداة وعن التابعين ومن تبعهم باحسان إلى يوم يبعث الله العظام الرفات ، ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ، ربنا ظلمنا أنفسنا ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لنا مغفرة من عندك وارحمنا إنك أنت الغفور الرحيم ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم

الـكافرين ، اللهم ياغياث المستغيثين ، وملجأ ذوى الفاقات الملهوفين ، أسألك يا أرحم الراحمين يا ذا الجلال والاكرام أن تجعلنا فى الدنيا والآخرة من خيار أهل لا إله إلا الله ومن خيار أهل معرفتك وأن تمتعنا إثر الموت مع الأحبة فى جنة الفردوس بجلائل نعمك وجميل رؤيتك ، وأن تغفرلنا جميع ذنوبنا بلا عقوبة ولا محنة ، وأن تؤدى عنا جميع تبعاتنا بمحض فضلك بلا خزى دنيا وأخرى يا ذا الفضل والمنة ، اللهم لك الحمد وإليك المشتكى من أنفسنا ومن عوائق قد عسر معها فى هذه الأزمنة الصعبة النجاة فآمنايا مولانا من ضررها فى ديننا ودنيانا حالا ومآلا حتى نفوز بأعظم رضوانك فى الحياة وبعد الممات اللهم يا أرحم الراحمين إنه قد أسرتنا الأوهام والهوى وضعفت عن النهوض إلى التمتع بمنيع جنابك العلى منا القوى وقد اشتدّ علينا وثاق القلوب ، وأضعفها وأعمى عينها توالى ظلمات المعاصى عليها وتراكم ران الذنوب ، فقلوبنا تبكى وتندب وإن ضحك منا اللسان وتريد النهوض إلى نيل الكمالات شوقا إليه فيمنعها الأسر والعمى ولا تساعدها عليه القوى ولا النفس ولا الأركان فصرنا يا مولانا مطروحين فى مضيق سجن الآفات مكبلين فيه بقل قيود الشهوات ، فياذا الفضل العظيم الذى لا يحدّ ولا يعلل ولا يقاس بمكيال ولا ميزان ، ياذا الكرم العميم الذى فاض على العوالم كلها حتى طمع فيه القريب ومن هو فى غاية البعد والخسران ، قد أمرتنا ياذا الجلال والإكرام على لسان نبيك ورسولك سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بفكاك العانى وإنفاذه من الأسر الذى ضرره يسير وعرض فان ، فنحن يا مولانا العانون حقيقة الخائفون الانقطاع عما يدوم من الخير العظيم مما حبرت به أولياءك فى أعلى الجنان ، ولا عوض له من الفوز منك بجميل الرضوان ، من على قلوبنا وذواتنا المأسورة والمحبوسة

عن التمتع بلذيذ حضرة جلالك التي لا يملك الصبر عنها بمابه أمرتنا يا كريم يا وهاب يا رحيم يا رحمن ، يامن ليس معه في تدبير ملكه ثان اللهم اغفر لنا ولآبائنا ولأمهاتنا ولأشياخنا وإخواننا وأحبتنا وذرياتنا واجمع شملنا وشملهم بلا محنة مع أكابر أوليائك في أعلى عليين ومتع جميعنا إثر الموت في أعلى الفردوس بلذيذ رؤيتك ومرافقة من أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، اللهم انفع بهذا الشرح كل من اعتنى به من أهل الخير والإيمان ومن" اللهم على كل من حفظ العقيدة أصله بحسن الخاتمة والفوز بعموم الغفران ، اللهم اجعل حفظها لهم نورا عظيما في الدنيا والآخرة وأعطهم بسببها بلا محنة من الفردوس الأعلى أعلى المنازل الفاخرة واحفظنا وإياهم إلى الممات من جميع الفتن ، واجعل بيننا وبين الظالمين حجابا مستورا في ديننا ودنيانا ياعظيم المواهب والمنن ، نتوسل إليك يامولانا في نيل هذه المطالب كلها بذاتك العلية ثم بنبيك ورسولك سيدنا ومولانا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ذى النفس الزكية الشفيع المشفع عندك سيد الأولين والآخرين سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وعلى أهله عدد ماذكرك وذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وحسبنا الله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم عدد قطر الأمطار ، وعدد ورق الأشجار ، وعدد مثاقيل الجبال والأحجار ، وعدد الرمال ، وزبد البحار وعدد الأبرار والفجار ، وعدد مايختلج في الليل والنهار واجعل اللهم هذه الصلاة لنا نجاة من النار ياواحد ياأحد يامهيمن ياقهار ، وسلام على جميع الأنبياء والمرسلين ، والحمد لله رب العالمين


Bibliotheca Alexandrina
0437480